تاريخ الدولة العربية

(عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية)

الجزء الثاني

دكتـور

بدر عبد الرحمن محمد

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

بكلية آداب بنها

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

النـاشـر

مكتبـة الأنجـلو المصـرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم



عصر الخلفاء الراشدين

قيام الخلافة الإسلامية :

اهتز المسلمون وانخلعت قلوبهم عند سماعهم نبأ وفات النبى ﷺ ، ولم يصدقوا نبأ الوفاة . حتى أنهم فى غمرة ما أصابهم من ذهول نسوا ما نزل من الآيات التى تشير إلى موت الأنبياء كسائر البشر . كما واجه المسلمون مشكلة بالغة الخطورة وهى من يخلف النبى فى رياسة الدولة الإسلامية ، خاصة وأنه لم يوصى قبل وفاته بزعامة المسلمين من بعده لأحد . بل ترك الأمر شورى بين المسلمين .

ويقف الصديق أبو بكر رضى الله عنه ، ليعيد إلى العقول رشدها ويخطب الناس قائلاً : أيها الناس : من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ومامُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١) .

وهذا الموقف يدل على رسوخ إيمان أبى بكر وقيادته للناس فى أصعب المواقف وكادت تكون فتنة لشدة خلاف المسلمين حول الموضع الذى يدفن فيه النبى ، لولا أن حسم أبو بكر الأمر بروايته لحديث للنبى قال فيه : « ما من نبى يقبض إلا دفن تحت مضجعه الذى مات فيه »(٢) .

---

(١) سورة ال عمرآن : آية ١٤٤ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٢٠ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر سنة ١٩٧٦م .

على أنه حدث قبل تجهيز جثمان النبى ودفنه ، أن ظهرت مشكلة من يخلف النبى فى رئاسة الدولة الإسلامية ، وخاصة أن الرسول لم يخلف أطفالاً ذكورًا ، ولم تكن الزعامة العربية أو المشيخة العربية من الوظائف الوراثية تمامًا ، وإنما كانت انتخابية أكثر منها ، وراثية يراعى فيها الأقدمية فى السن فى القبيلة ، وعلى ذلك فحتى لو كان أبناؤه (صلعم) لم يموتوا قبله فإن ذلك لا يحل المشكلة ، كذلك لم يعين الرسول بوضوح من يخلفه فى قيادة المسلمين ، ولم يترك وصية عن طريقة الحكم من بعده . وكأنما أراد رسول الله بذلك أن يترك الأمر شورى بين المسلمين لاختيار النظام الذى يرونه والقيادة التى يقع اختيارهم عليها .

لكن الاختيار صعب ، لأن المشكلة مشكلة دولة لا مشكلة قبيلة أو عشيرة كما كان الحال قبل الإسلام ، وحاضرة الدولة – المدينة – تضم جماعتين متميزتين: جماعة المهاجرين ، وجماعة الأنصار ، الأولى الوافدة إل المدينة ومعهم رسول الله بالدين الجديد ، وكانوا أقرب الناس من النبى بحكم سابقتهم إلى الإسلام وجهادهم ، وكانوا يؤلفون الدائرة القريبة من حياته ومنهم يتكون مجلسه ومستشاره ، ولكن نبأ وفاة الرسول أصابهم بصدمة لم يفيقوا منها إلا بعد فترة ، كما أن آل البيت انشغلوا فى إعداد جثمانه للدفن .

أما الأنصار وهم الجماعة الثانية – الذين كانوا يطمعون أن تكون رئاسة الدولة الإسلامية فيهم – فهم أصحاب المدينة التى فتحت أبوابها باختيارها ، للدين الجديد والنبى ، ولصحابته ، فقد اعتزل جماعة من قادتهم فى سقيفة بنى ساعدة[1] ليتداولوا فى أمرهم ، وأمر الخلافة وليحددوا موقفهم من الدولة والأمة،

---

(١) السقيفة : هى ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة يجتمعون فيها وكانت له الرياسة محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص١١ هامش (١) .

ويقرروا صلتهم بالجماعة الإسلامية ودعاهم إلى هذا النهج فى التفكير أنهم آووا رسول الله ، حين تخلت عنه مكة ، وإن الرسول بعد فتح مكة سنة ٨هـ اختارهم واختار مدينتهم ولم يبق فى قومه، كما أنهم هم الأنصار الذين نصروا رسول الله.

وإذا كان الأنصار قد طمعوا فى أن تكون الخلافة فيهم واجتمعوا ، ليبايعوا سعد بن عبادة . إلا أن موقفهم لم يكن من القوة بحيث يتمكنوا من تحقيق غرضهم ، فالأوس والخزرج – وهم الذين عرفوا بالأنصار والذين كانوا دائمًا على خلاف – لم تتفق كلمتهم على انتخاب شخص معين منهم ليتولى أمر المسلمين ، فإذا كان الخزرج قد مالوا إلى أن تكون الخلافة فى سعد بن عبادة سيد الخزرج(١) ، فإن سعد بن عبادة لم يكن بالشخصية التى يمكن أن تخلف النبى فى قيادة المسلمين، فضلاً عن أن الأوس لم تبد ارتياحًا لترشيحه حتى لا يستعيد الخزرج نفوذهم وسلطانهم القديم . كما أن الشخصية الثانية البارزة بين الأنصار ونقصد سعد بن معاذ سيد الأوس كان قد توفى قبل وفاة الرسول .

ومع أن الخلافات على رئاسة الدولة الإسلامية قد ظلت نائمة فى حياة الرسول ، إلا أنه وجد من هو راغب فيها من قريش بعد وفاته ، فهناك بنو هاشم، وكانوا يطمعون أن تبقى الرئاسة فيهم ، وكانوا ينتظرونها لعلى بن أبى طالب ، على اعتبار أن والده كان له دور كبير فى حماية الرسول فى مكة قبل هجرته إلى المدينة ، وأن عليا من أكثر أفراد بنى هاشم قرابة لرسول الله ، فهو ابن عمه ، وتربى فى بيته ، ومن أوائل المؤمنين بدعوته ، كما أنه زوج ابنته فاطمة ، وأن الرسول كما قيل أوصى إليه بالمسلمين من بعده ، كما أن هناك من يعتقد أن بنى هاشم هم ورثة الرسول ﷺ .

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية ص ١٢ .

لكن اجتماع يوم السقيفة أسفر وبسرعة عن مبايعة المسلمين لأبى بكر بالخلافة ، ليكون خليفة النبى فى رئاسة الدولة وقيادة المسلمين ، ... ولكن لماذا رجحت كفة أبى بكر عندما دعا عمر بن الخطاب ومعه أبو عبيدة إلى مبايعة الصديق ؟ وماذا عن وقائع اجتماع السقيفة ؟ .

لقد كان لوصول أبى بكر وعمر وأبو عبيدة ومعهم بعض المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة فور سماعهم باجتماع الأنصار أثره على وقائع الاجتماع ونتائجه وكان تصرفهم - كما يقول الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور - منبعثًا عن خطة محكمة(١) ، فأبو بكر رجل المواقف الصعبة التى تحتاج إلى تبصرة يلتقط طرف الحوار مع الأنصار ويذكرهم برسول الله كما « خص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان بـه والمواساة لـه والصبر معه على شدة أذى قومهم لـه وتكذيبهم إياهم ... فهم أول م عبد الله فى الأرض وآمن بالله والرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق بهذا (الخلافة)(٢) . من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم » .

وإذا كان أبو بكر قد بين بكلامه هذا احقية المهاجرين فى الخلافة ، فإنه وضع الأنصار فى مكانهم بقوله : « وأنتم يا معشر الأنصار : من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته وفيكم جل أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين بمنزلتكم » ثم قال ليوضح الأمر بجلاء « فنحن الأمراء » ، وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور(٣) .

---

(١) نفس المرجع ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ٢ ، ص ٤٥٨ .

(٣) نفس المصدر والصفحة ، محمد أمين صالح : العرب والإسلام ص ١٣٥ .

فقام أحد الأنصار لا يريد التنازل عن موقفهم بسهولة فقال : « نحن الأنصار وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهط نبينّا ، وقد دفت إلينا من قومكم دافة ، فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر ، زورت (أعددت) فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر » .

ويقدم أبو بكر الحجة على زعامة قريش للعرب ، وشرفها فقال : « يا معشر الأنصار ، فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً ألا وأنتم له أهل ، وأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، وهم أوسط العرب دارًا ونسبًا ، ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (مشيرًا إلى عمر وأبى عبيدة) فبايعوا أيهمًا»، فرد رجل من الأنصار فقال : « منا أمير ومنكم أميرًا معشر قريش » .

فقدم أبو بكر مزيدًا من الحجج وقال لسعد بن عبادة سيد الخزرج أمام المجتمعين : « ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

وإذا كان أبو بكر قد قدم عمر وأبو عبيدة ليبايع الناس أحدهما ، فإن الرجلين رفضًا أن يتقدمًا أبا بكر وبينا للناس فضل أبى بكر واحقيته بالخلافة وقالاً: « لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما فى الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ينبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك » .

وإذا كان أبو عبيدة قد وجه حديثه للأنصار بقوله : « يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير »[١] ، وقد ارتفعت

---

(١) الطبرى : جـ٢ ص٤٠٨ .

الأصوات واحتدم النقاش ، فقد فوجئ المجتمعون بالسقيفة ببشير بن سعد - أحد زعماء الخزرج - يؤيد دعوى المهاجرين فى حقهم فى الخلافة ويقول لقومه : « يا معشر الأنصار ، إنا والله كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضى ربنا وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا فلا ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك .. ألا إن محمدًا ﷺ من قريش . وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدًا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »(١) .

كان لمقالة بشير بن سعد أثرها على المهاجرين والأنصار ، كما وجدت الأوس فى بشير ما يحقق هدفها ويبعد الخزرج وسيدهم عن السلطة والنفوذ ، وما يجعلهم أكثر ميلاً إلى جانب المهاجرين ، وإذا كانت مقالة بشير قد تركت أثرها ، فإن عمر حسم الأمر نهائيًا وخاطب المجتمعين مقدمًا أبا بكر بقوله : « أيكم تطيب نفسه أن يخلف قدمين قدمهما النبى ﷺ ». ثم فتح عمر يد أبى بكر وبايعه، وبايعه أبو عبيدة ، ثم تقدم بشير بن سعد فبايعه ، كما تقدمت الأوس وأعلنت مبايعتها لأبى بكر كما أقبلت القبائل التى كانت تنزل أطراف المدينة وقد تضايقت بهم السكك والطرقات فبايعت أبا بكر خليفة لرسول الله ، وإذ تحرج موقف الخزرج حرجًا شديدًا ، وقد أفلت الأمر من يدها ، فإنها اضطرت إلى الدخول فيما دخلت فيه الأغلبية ، فأعلنت مبايعتها لأبى بكر إلا سيدها سعد بن عبادة الذى رفض مبايعة أبى بكر(٢) .

وإذا كانت هناك بعض الروايات التاريخية تذكر أن عليا وبنى هاشم لم يبايعوا أبا بكر كما تذكر أن رسول الله سبق أن اشار إلى أن عليا هو الذى

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ١٢٠ - ١٢٦ .

(٢) جمال سرور : الحياة السياسية ص ١٥ .

سيخلفه من بعده ، ولكنه لم يكن قد وضع قاعدة معينة للخلافة ، مما أفسح المجال للمطامح الشخصية وأضر بالإسلام ، وأن عليا وغيره من كبار آل البيت بغيرتهم المعتادة على الدين ورغبة منهم فى جمع كلمة المسلمين قد بايعوا أبا بكر رغم وصية النبى لعلى بالخلافة. فإن مثل هذه الروايات من وجهة نظر أخرى ليس هناك ما يقطع بصحتها ، وبأنها وضعت من بعد لأغراض سياسية . وهذا ما نؤيده[١] .

لقد كان أبا بكر أحق الناس بخلافة الرسول ، فهو « الصديق » وهو الذى كفة إيمانه ترجح كفة إيمان الأمة بشهادة رسول الله ، وهو ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، من السابقين إلى الإسلام ، وله جهوده فى نصرة الرسول فى مكة حينما اتخذت قريش موقف المعارضة الشديدة من النبى وهو الذى قدم كل ماله لرسول الله ، وكان أكثر قربًا من النبى كما كان يستشيره فى أكثر الأمور حتى ليعد وزيره ، كما أنه والد عائشة زوج النبى التى احتلت من قلب الرسول مكانة خاصة ، كما أن الرسول أنابه فى أمامة المسلمين فى الصلاة أثناء مرضه الأخير ، فضلاً عما تحلى به من خلق رضوان الله عليه وآراؤه ومواقفه الحاسمة فى المواقف الصعبه . لكل هذا لم يعترض أحدًا على مبايعة أبى بكر عندما فتح عمر يد «الصديق » ليبايعه .. كما اتضح لنا تمامًا من خلال درساتنا لوقائع اجتماع السقيفة[٢] ، والاجتماع الذى تم فى مسجد رسول الله للمبايعة أبى بكر البيعة العامة » .

---

(١) انظر الطبرى : جـ٢ ص ٤٥٨ ، تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ١٠٣ ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ١ ص ١٨ .

(٢) يعلق توماس أرنولد على بيعة أبى بكر بقوله : يتفق انتخاب أبى بكر مع التقاليد العربية القديمة التى كانتتراعى حين يموت شيخ القبيلة فينتخب كبارها أحدهم لشغل هذا المكان الشاغر ويشترط أن يكون محترمًا بين قومه أما لسنة أو لقيامه بخدمات جليلة للصالح العام .
The Caliphate .p. 20

ومن هنا نرى أن المسلمين حكموا مبادئ الشورى التى حددها الإسلام ، وأنهم تدارسوا واقع الجماعة ، وظروف الدولة . ومن ثم كانت مبايعة أبى بكر وقيام الخلافة .

ووقف أبو بكر على منبر رسول الله ، وألقى خطبة له بعد البيعة العامة فى مسجد رسول الله ، يوضح السياسة التى ستسير عليها الدولة الإسلامية والأسلوب الذى سينهجه فى إدارتها ، وحدود مسئولية الحاكم ، وأسس العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، كما حدد القانون الذى سيعمل به وإلتزامه بالقرآن والسنة، وحق المساواة بين الناس وأن يحكم بالشورى ، والدين النصيحة ، كما أن سياسة الدولة القائمة على العدل غايتها الجهاد فى سبيل الله ، وإقامة مجتمع العدل ، ومما جاء فى خطبته : « أيها الناس : أنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وأن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع أحدًا منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم البلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »(١) .

حركة الردة :

وإذا كانت مشكلة نظام الحكم قد انتهت بمبايعة أبى بكر خليفة لرسول الله وقيام نظام الخلافة ، فقد واجه المسلمون مشكلة أكثر صعوبة وأشد خطرًا من

---

(١) الطبرى : حـ٣ ص ٢١٠ ، أمين صالح ص ١٣٩ .

سابقتها إلا وهى ما عرفت فى المصادر التاريخية « بالردة » أو كما أطلقت عليها بعض المراجع الحديثة « حركة انتقاض القبائل العربية »[١] أو « حركة الردة » ، تلك الحركة التى هددت الخلافة وهزت الدولة العربية الإسلامية الناشئة .

وهذه الحركة ظهرت قبيل وفاة النبى ﷺ ، وتفاقم خطرها بعد وفاته ، وكانت وفاة النبى السبب المباشر فى ظهورها على هذا النحو ، إذ هزت وفاته المسلمين جميعًا ، ولم يصدق غالبيتهم فى أول .. سماعهم النبأ أنه قد مات ، وما أن أكد لهم أبو بكر نبأ وفاته ، حتى انفسح . المجال أمام المنافقين واعداء قريش من العرب لأظهار نزعاتهم ونواياهم الانفصالية ، كما أحس الناس بعد وفاته بفراغ كبير ، وظنوا أنه لن يقوم مقامه أحد ، وأنه لن يوجد من يملأ هذا الفراغ بعده ، كما ظنوا أن النظام الجديد ، نظام الدولة العربية الإسلامية الذى جاهد الرسول ﷺ على تدعيم أسسه لن يدوم بعده ، لأنهم ربطوا بين هذا النظام الجديد وشخصيته ﷺ ، وكانوا يرون أن بقاء واستمرار هذا النظام يحتاج إلى دوام صاحبه. لأنه هو الذى حقق للعرب مكاسب دينية واجتماعية وسياسية ، وهو الذى ربط العرب برابطة الإيمان بدلاً من رابطة الدم والعصبية القبلية ، وشرع الجهاد فى سبيل ا لله بدلاً من القتال الذى كان يقوم من أجل الثأر أو الكلاء والماء ، كما وضع أسس الدولة العربية الإسلامية التى تستند إلى أحكام القرآن الكريم والسنة ، ومن ثم كانت وفاته ﷺ ، وهو الذى أصبح فى السنوات الأخيرة من حياته أبرز رجل فى الجزيرة العربية نفوذًا وسلطانًا فضلاً عن أنه القدوة ، بمثابة كارثة ، وفاجعة كبيرة ، ألمت بالمسلمين ، فهزتهم من الأعماق ، وزعزعت كيان الدولة الإسلامية الناشئة ، لأن عددًا كبيرًا من القبائل العربية التى كان يربطها

---

(١) جمال سرور : نفس المرجع ص ١٩ .

بالنبى فى حياته معاهدات أو اتفاقيات قد اعتبرت أن ما كان يربطها بالدولة الإسلامية قد انتهى بوفاته ، كما أن بعض القبائل العربية الأخرى طردت عمال النبى ، وقلدتها فى مسلكها هذا قبائل عربية أخرى يدفعها فى ذلك رغم أعجابهم بالروح القومية التى بعثها النبى فيهم - رغبتها فى العودة إلى النظام القبلى القديم ، فأظهروا ما كانوا يخفون من نوايا انفصالية ونزعات وكبر عليها أن تكون خاضعة لسيادة قريش ، لاعتقادهم أنها سلبتهم حريتهم وادخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ، ومن ثم تطلعت هذه القبائل إلى استرداد ما كانوا يتمتعون به من استقلال، كما كان الحال فى ظل النظام القبلى القديم السابق على الإسلام ، كما غالت بعض هذه القبائل فى ردتها وارادت أن يكون لها ما لقريش من السلطة والنفوذ والرياسة بمعنى أن يكون لها نبى كما كان من قريش نبى ، وأن يلتف العرب حولها ويجمعون على زعامتها كما اجتمعت لقريش ، وساعد على تأجج نار الردة واذكاء الفتنة أنباء ذلك النزاع الذى شهدته سقيفة بنى ساعدة بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، واستئثار قريش بالخلافة دون الأنصار من أهل المدينة . كما شجعهم على المضى والمغالاة فى حركة انتقاضهم قيام أبى بكر بتحقيق رغبة النبى فى انفاذ حملة أسامة بن زيد إلى الجبهة الشمالية وما ترتب على ذلك من ضعف القوة الدفاعية للنظام الجديد الذى ثبت وتمثل فى مثلث رؤوسه المدينة ومكة والطائف .

على أن ضعف سلطان المدينة فيما وراء دائرة الحجاز كان واحدًا من الأسباب الهامة وراء حركة الردة ، ويرى بعض الباحثين أنه الدافع الثانى من دوافع هذه الحركة وأنه إذا كان لغزوة تبوك التى قادها الرسول فى العام التاسع من الهجرة أعظم الأثر فى بسط سلطان المدينة على معظم قبائل شبه الجزيرة العربية ، وأن هذه القبائل أرسلت وفودها فيما يعرف « بعام الوفود » تعلن خضوعها

للدولة الإسلامية ودخولها فى الإسلام ، ألا أنـه مـن المؤكـد أن الوحـدة السياسـية لعرب الجزيرة جميعًا لم تقم فى أى وقت ، وليس هناك سند تاريخى واحد يشير إلى قيامها زمن النبى ، وإذا كانت قد تكونت حكومة فى المنطقة الوسطى من الحجـاز فإنها كانت تشتمل على المدينة ومكة وبعض القبـائل العربيـة المجـاورة . أمـا قبـائل أطراف الجزيرة العربية لم تخضع لسـلطان المدينـة إلا خضوعًـا اسميًـا وأن خضوعهـا كان مرهونًا بحياة الرسول ، و لم يكن الإيمان قد ملأ قلوبهـم ورسـخ فـى نفوسـهـم كعقيدة، وأنما كان اعتنـاقهم الإسـلام تبعًـا لرؤسـائهم ، وكـان تطبيقهـم لأركـان الإسلام تطبيقًا شكليًا وسطحيًا ، فالإسلام لم يكن قد تمكن من قلوبهم بعد . ومن وجدنا منهم من ارتد عن دين الإسلام بحكم أن الإسلام انتهى بموت النبى ، لأنهم لم يفهموا الإسلام ، و لم يكونوا يعرفون من الإسلام غـير اسـم محمـد ، والقـرآن ، كما أن بعضهم فى حياة النبى كانوا يطالبونه بإسقاط الصلاة أو الزكاة عنهم . بل إن فريقًا منع الزكاة ، وكان يشعر أن ما فرضه الإسلام من الزكاة أوجد نوعًا مـن الإحساس بالإذلال لهم بين القبائل ، وزعم أنها أتاوة قبلوا دفعها للنبـى شـخصيًا ، وبوفاته لم يعد هناك ما يبرر دفعها لمن قام بعده ، وهؤلاء يصورهـم القـرآن بقولـه تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(١) ، وأيضًا عن هؤلاء الأعراب يقـول القـرآن : ﴿ الأَعْـرَابُ أَشَـدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَاللَّـهُ عَلِيـمٌ حَكِيـمٌ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِـرَ عَلَيْهِـمْ دَائِـرَةُ السَّـوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٩٧ - ٩٨ .

وهؤلاء أصر أبو بكر على حربهم وقتالهم ، لأن الامتناع عن دفع الزكاة هدم لركن من أركان الإسلام ، وأن التهاون فيه قد يجر إلى هدم غيره من أركان الدين ، فضلا عن أن الزكاة هى أهم مصدر ومورد لخزينة الدولة والتنازل عنها أضعاف للدولة وأمكانياتها وقدراتها . كما أنهم بعدم دفعهم الزكاة هو خروج على سلطان الخلافة وتحدى لحكومة المدينة ولابد من قتالهم لا عادتهم إلى حظيرة الدولة .

وإذا كانت حركة الردة أو المرتدين بوجهيها أو مظهريها الدينى والسياسى قد هزت لدولة الإسلامية ، فقد كان انبعاث العصبية القوية لدى القبائل العربية والأعجاب بشخصية النبى ومحاولة الوصول إلى مثل سلطانه السبب الثالث الدافع إلى قيام حركة المرتدين التى وضحت فيها العصبيات القبلية وروح الانفصال . ذلك أن العصبية القبلية ظلت تفرض نفسها ، وظل ولاء الفرد لعشيرته وقبيلته أقوى من ولائه لأى شئ ، وكان عرب الجزيرة يطلبون الفكاك من سيطرة المدينة، كما أن زعماء القبائل العربية الذين أدعوا النبوة كانوا يعبرون عن نزعات قبلية ووطنية ، كما أنهم حاولوا الاحتفاظ باستقلال قبائلهم وشخصيتها ، كما أن إعجابهم بشخصية النبى التى اكتسبت الأعجاب والإجلال والنفوذ ، كان مثار تقدير وغيره لكثير من أصحاب الطموح فى أنحاء الجزيرة العربية ، ممن كانوا يحسون أن وراءهم عصبيات قوية يستطيعون الاعتماد عليها فى محاولة للوصول إلى ما وصل إليه النبى من نفوذ ومكانة وسلطان ، وأدعى نفر من هؤلاء الذين تحركهم الروح الانفصالية ، والطموحات الشخصية فادعوا « النبوة » واتخذوها وسيلة لتحقيق أهدفهم ، فادعوا العلم بالغيب واتصالهم بالجن ، واستطاعوا جمع كثير من الأنصار حولهم ومن أشهرهم طلحة بن خويلد الأسدى ، ومسيلمة بن

حبيب الحنفى ، والأسود العنسى ثم قلدهم فى ذلك ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى فى عمان ، وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية فى بنى تغلب .

ولكن ماذا نعرف عن هؤلاء المتنبئين ؟

أولاً : الأسود العنسى :

من أهل اليمن ، واسمه عبهلة بن كعب بن عوف العنسى نسبة لقبيلة عنس، وسمى الأسود لسواد لونه ، وكان يقيم فى كهف خبان بجنوب اليمن ويلبس خمارًا على وجهه كعادة الكهان .

وكانت بلاد اليمن عندما قام الأسود بحركته تحت نفوذ النبى إذ كان باذان آخر ولاة الفرس قد آمن برسول الله فأقره النبى على حكم اليمن فلما مات باذان قسم الرسول عمله بين عدة رجال ، ولكنه احتفظ لشهر ابن باذان بإمارة صنعاء قصبة اليمن ، ولم يلبث أن جاءت هؤلاء كتب من الأسود العنسى ينذرهم برد ما فى أيديهم من البلاد لأنه أحق بها منهم[١] . وربما كانت حركة الأسود فى بادئ أمرها حركة وطنية يقصد بها التخلص من طائفة الأبناء « وهم أبناء الفرس من اليمن »[٢] . والخروج على الإسلام ، وعدم الخضوع للنبى ، وقد تبعه خلق كثير من أعراب اليمن ممن يحبون الفوضى والإباحية ويبغضون النظام والسلوك الفاضل. ثم خرج على الناس مدعيًا النبوة . وأغار على أطراف الدولة الإسلامية باليمن ، وطرد عمال النبى ، ثم سار بأتباعه إلى نجران فأخذها ، ثم إلى صنعاء فاستولى عليها[٣] ، وقتل عاملها شهر بن بأذان ، وتزوج أمرأته كرها ، كما بسط نفوذه

---

(١) الطبرى : جـ٢ ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٥ .

(٢) راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١١١ .

(٣) كما الحق الهزيمة بالأبناء واستتب ملكه باليمن . الطبرى : جـ٢ ص٤٣٠ .

على حضر موت ، وسمى نفسه « رحمان اليمن » وهدد الحجاز ، ووصل نفوذه إلى الطائف بجوار مكة . وخشى الرسول أن يصل نفوذه إلى المدينة نفسها . على أن الرسول استطاع فى حياته القضاء على ردة الأسود العنسى وذلك بتأليب القبائل الموالية له والتى لم تكن ارتدت مثل حمير وهمذان على الأسود ، أو باستمالة نصارى نجران الذين كانوا حلفاؤه ، كما استمال إلى جانبه طبقة الأبناء المسلمين للاستعانة هم . كما كتب ﷺ إلى ولاته باليمن يأمرهم بمناهضة الأسود والقضاء على حركته ، فدبر هؤلاء مؤامرة بالتعاون مع قيس بن عبد يغوث قائد جيش الأسود وفيروز وزيره ، وزوجته الفارسية (آزاد) الغاضبة على الأسود لأنه قتل زوجها السابق شهر . ونجحت الخطة واغتالوا الأسود ، ووصل الخبر إلى النبى قبل وفاته غير أن اليمن أعلنت عصيانها ثانيًا بعد وفاة الرسول[١] ﷺ فأرسل أبو بكر إليها الجيوش .

ثانيًا : طليحه بن خويلد الأسدى :

هو كاهن من بنى أسد ، ارتد فى حياة رسول الله ﷺ وادعى النبوة . وزعم أن جبريل يأتيه بالوحى كما يأتى النبى محمد ﷺ وسجع . للناس الأكاذيب ومنها قوله : والحمام واليمام ، والصرد الصوام قد صمن قبلكم بأعوام . ليبلغن ملكنا العراق والشام »[٢] ، وهو بسجعه هذا يحاول أن يقلد ما ينزل على رسول الله من السور والآيات ، وسخر طليحه من تأدية المسلمين للصلاة ، ودعا الناس إلى الصلاة وقوفًا ونهاهم عن الركوع والسجود .

---

(١) الطبرى : جـ٢ ص ٤٦٩ ، ابن الأثير جـ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) الطبرى : جـ ٣ ، ص ٢٥٦ ، طبعة دار سويدان ، بيروت ، لبنان .

وقد شايع طليحة قومه من بنى أسد وحلفائهم طئ وغطفان وكنانة ، ومع ذلك ظل بعض خواصهم متمسكًا بالإسلام ، وقد أرسل رسول الله إلى طليحة من يخضعه ولكن النبى توفى قبل أن يتم ذلك . وكان أن هدد أنصار طليحة المدينة لخلوها من جند المسلمين الذين خرجوا فى جيش أسامة إلى الشام ، وارسلوا وفدهم إلى المدينة يبلغ أبا بكر استعدادهم لبذل الصلاة ومنع الزكاة ولكن أبا بكر رفض هذا العرض ، وأصر على قتالهم حفاظًا على أركان الإسلام وشريعة الله وسنة رسول الله . وكان أن هاجموا المدينة . غير أن أبا بكر قد حصنها وأعد العدة لملاقاتهم وقتالهم ، ونجح فى إبعاد خطر طليحة وإتباعه عن المدينة ، ثم عهد إلى خالد بن الوليد بالقضاء على حركة طليحة وحلفائه ، وعندما اشتد القتال وأيقن طليحة الهلاك فر هربًا إلى الشام(١) حتى مات أبو بكر ، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة أتاه فبايعه على حد قول محمد بن جرير الطبرى(٢) .

ثالثًا : مسيلمة بن حبيب الحنفى المعروف بمسيلمة الكذاب :

ينتمى إلى بنى حنيفة باليمامة وهم فرع كبير من بكر بن وائل ، قدم مسيلمة مع وفد بنى حنيفة على رسول الله فى المدينة فى السنة العاشرة من الهجرة، وبعد عودة الوفد أدعى مسيلمة النبوة ، وأنه شريك للنبى محمد ﷺ فى الأمر . فالتف حوله بنو حنيفة ، وكتب إلى رسول الله ﷺ فى آخر السنة العاشرة من الهجرة كتابًا يقول فيه : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد ﷺ ، سلام عليك، فإنى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشًا قوم يعتدون » . فكتب إليه النبى ﷺ : بسم الله الرحمن

(١) الطبرى : جـ٣ ص ٢٦٠ .

(٢) الطبرى : جـ٣ ص ٢٦١ .

الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد فالسلام على من أتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين(١) .

وزاد من أمر مسيلمة خطرًا انضمام نهار الرجال بن عنفوة إلى جانبه ، ونهار الرجال هذا من بنى حنيفة هاجر مع وفد بنى حنيفة إلى رسول الله وتعلم القرآن ، وفقه فى الدين ثم بعثه الرسول معلمًا إلى أهل اليمامة ، وليتصدى لمزاعم مسيلمة وادعاءاته ، وليشد أزر المسلمين ولكن نهار الرجال انضم إلى مسيلمة ، وأدعى أنه سمع رسول الله ﷺ يقر باشراك مسيلمة معه فى النبوة فكان أعظم فتنه على بنى حنيفة من مسيلمة(٢) .

وزعم مسيلمة أيضًا أن جبريل يأتيه بالوحى ، وقال أيضًا السجع وكان مما يقرأه على أتباعه : « ياضفدع يا ابنة الضفدع ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين » .

واشتد خطر مسيلمة بعد وفاة النبى إذ جمع جيشًا قوامه نحوا من أربعين الفًا وزادت خطورته أكثر بانضمام سجاح بنت الحارث إليه بعد أن تنازلت عن ادعائها بالنبوة مقابل زواج مسيلمة منها . وأن يكون مهرها إعفاء قومها من صلاتى العشاء والفجر(٣) .

وإذا كان الرسول قد توفى قبل أن يودبه فإن أبا بكر وجه إليه جيشًا بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، وإذا كان جيش عكرمة قد هزم(٤) ، فإن أبا بكر قد أرسل

---

(١) انظر المقريزى : امتاع الأسماع جـ١ ص ٥٠٨ ، ٥٠٩ .

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٥٠٥ ، القاهرة ، ١٢٥٨ هـ / ١٩٣٩م .

(٣) أو أنه صالحها على النصف من غلات اليمامة وتعود من حيث أتت الطبرى : جـ٣ ص٢٧٤ ، ابن صالح : العرب الإسلام ص ١٦١ .

(٤) فقد بلغت قوات مسيلمة « أربعون ألف مقاتل » جـ٣ ص ٢٨١ .

خالد بن الوليد على رأس جيش كبير ، وكانت موقعة عقرباء[1] وكان قتال كبير، بلغت خسائر مسيلمة عشرة آلاف قتيل واستسلم الباقون كما استشهد كثير من المسلمين وقراء القرآن ، لذا سمى مكان المعركة « حديقة الموت » كما سمى يوم الموقعة يوم اليمامة ... لتعود اليمامة إلى الإسلام[2] .

رابعًا : سجاح بن الحارث بن سويد التميمية :

هى امرأة من بنى يربوع ، تنتمى إلى بنى تغلب بالخؤولة والى بنى تميم بالنسب نشأت فى قبيلة تغلب الموجودة فى الشمال قرب منطقة الجزيرة (بالعراق). وعندما أدعت النبوه التف حولها بنو تغلب واتبعها بنو تميم[3] . ولكن من واقع دارستنا لمركز المرأة فى الإسلام ، اضتح لنا أن مركز المرأة كان دون مركز الرجل ، بل ... ونستطيع أن تقول أن مركز المرأة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام كان وضيعًا . ومن م لفت انتباهنا ذلك المركز المتميز والممتاز لسجاح بنت الحارث بالدرجة التى تجعلنا نتساءل عن السروراء التفاف قبائل تغلب على وجه الخصوص، ثم بنو تميم حول امرأة منهم صارت لها المكانه المتميزة بينهم ، وقبولهم إدعائها للبنوة ؟

أن نشأة سجاح فى قبائل تغلب يفسر لنا السر ويلقى لنا الضوء على هذا الغموض فقبائل تغلب كانت تدين بالنصرانية ، حيث لمريم أم المسيح مكانة قدسية فى قلوب معتنقيها . كما أنه يوجد فى تاريخ المسيحية قديسات لهن مكانة رفيعة

---

(١) فى طرف اليمامة .

(٢) قتل مسلمة بيد وحش الحبشى وأبو دحانة ، اليعقوبى حـ٢ ص١٠٩ .

(٣) الطبرى : حـ٣ ص ٢٦٩ .

بين أهل هذه الديانة ، ولما كانت سجاح راسخة فى النصرانية ، قد علمت من علم نصارى تغلب « كما يذكر النويرى ، فإن معرفتها بالنصرانية وعلومها أتاحت لها مكانة رفيعة ووضعا متميزًا بين نصارى تغلب ، ومن ثم التف حولها نصارى تغلب لعلو منزلتها كما لو كانت أحدى القديسات وعندما أدعت النبوة فيهم اتبعوها وناصروا دعوتها ، بل وتذكر بعض المصادر أن الهذيل بن عمران سيد تغلب ترك النصرانية واستجاب لها .

وعندماعلمت سجاح بوفاة النبى ﷺ طمعت فى أرثه ، وزحفت فى رهطها من بنى تغلب من أرض الجزيرة بالعراق تقود جندا من ربيعة والنمر وأياد وشيبان. تريد غزو المدينة وقتال أبى بكر للخروج على سلطان المدينة ونفوذها .

وكان أن عرجت على بن يربوع وبعض بطون بنى تميم تستنهض هممهم لمتابعتها والخروج معها . وهنا أيضًا علينا أن نتساءل لماذا استنهضت بنى يربوع وبعض بطون تميم ؟ والإجابة : بنو يربوع هم أهلها فهى كما تقول عن نفسها :« أنما أنا امرأة من بنى يربوع » وبالتالى فهى تستنهض همم قومها .

ولماذا بعض بطون تميم ؟

قبيلة تميم قبيلة كبيرة ذات شعوب وفروع عديدة ، تنتشر بين اليمامة ومصب الفرات . وقبل الإسلام كان بعض شعوب تميم على المسيحية وبعضها الآخر على الوثنية . إلا أنها دخلت فى الإسلام فى أواخر أيام رسول الله فأمر الرسول عليهم أمراء منهم . ولما توفى الرسول كان منهم من ثبت على إسلامه وأداء زكاته مثل الزبرقان بن بدر وصفوان ابن صفوان ، ومنهم من منعها كمالك بن نويرة ، ومنهم من تردد مثل قيس بن عاصم . ولما كان الإسلام عند وفاة النبى

لم يكن قد رسخ فى قلوبهم ، فضلاً عن اختلاف الكلمة والتشاغل فيما بينهم ، فقد انتهزت سجاح هذه الظروف وعرجت على بنى يربوع والخارجين على سلطان المدينة لينضموا إليها فى سيرها لغزو عاصمة الخلافة . لكن مالك بن تويرة الذى امتنع عن أداء الزكاة وأعلن العصيان ، أغراها بخصومه من بنى تميم الذين مازالوا على ولائهم لأبى بكر .

ولما كان غرض مالك الاستعانة بها على سيادة تميم كلها ، وغرض سجاح الاستعانة به على المسير إلى المدينة فقد تحالفا . ودار قتال كبير طرفه الأول مالك وسجاح ، وطرفه الثانى بعض بطون تميم ، كثر فيه عدد القتلى والأسرى من الجانبين ، وانتهى بالصلح بينهما . ولما رأت سجاح ذلك انصرفت بجندها قاصدة المدينة إلا أنها منيت بهزيمة على يد أوس بن خزيمة عند قرية النباج . ثم صالحها على ألا تجتاز دياره إلى المدينة .

وانسحبت سجاح قاصدة اليمامة لتنازل خصما لها فى النبوة وهو مسيلمة ابن حبيب (مسيلمة الكذاب) .

لكن مسيلمة خاف قوتها ، ولما رأى أنه لا قبل له بحربها ، وبحرب جند المسلمين وقتال القبائل التى حوله فى آن واحد ، أهدى لها ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يجئ إليها ، ولما اجتمع معها عرض عليها أن يمنحها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت ، كما عرض عليها الزواج قائلاً : هل لك أن اتزوجك فأكل بقومى وقومك العرب » . فهذا الزواج ، زواج سياسى ، زواج مصلحة ، يوصل إلى الزعامة والملك .

ولما كانت سجاح قد أعجبها مسيلمة وسجعه وحلو حديثه ، وما اشترع لقومه . فإنها قبلت الزواج منه ، ولما عيرها قومها بأنها تزوجت بغير صداق استدعى مسيلمة مؤذنها شبث بن ربعى وقال له : «ناد فى أصحابك أن مسيلمة رسول الله

قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد : صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة « إكرامًا لسجاح ، فتنازلت سجاح عن نبوتها مما دفع عطارد بن حاجب احد أتباعها أن يسخر منها حين تابعت مسيلمة وتزوجته قائلاً :

أمست نبيتنا انثى نطيف بها   وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا[1]

ولكنه مع تهكمه هذا كان لا يفارق سجاح وأنما يسير معها ويسايرها .

وانتهت المفاوضات بين سجاح ومسيلمة على أن تأخذ سجاح غلات اليمامة سنة ، وحمل إليها النصف مما اتفقا عليه ، فانصرفت به إلى الجزيرة وخلفت وراءها من من رجالها من يحصل لها النصف الآخر ، لكن هؤلاء الرجال لم يقيموا إلا ريثما أقبلت جيوش خالد بن الوليد فانفضوا .

وتذكر بعض المصادر أن سجاح لم تزل فى بنى تغلب إلى أن أسلمت وأسلم بنو تغلب زمن معاوية بن أبى سفيان وحسن إسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها وصلى عليها « سمرة بن جندب » كما قيل أن سجاح بعد مقتل مسيلمة سارت إلى أخوالها بنى تغلب بالجزيرة ، واختفت . ولا يعرف شئ عن عقائدها .

خامسًا : ذو التاج لقيط بن مالك الازدرى :

عندما اسلم أهل عمان فى حياة النبى ﷺ ، اقر الرسول عليهم رئيسهم جيفر بن الجلندى وأرسل إليهم عمرو بن العاص ليعلمهم وليفقههم فى الدين ولما توفى رسول الله أدعى ذو التاج «لقيط بن مالك الأزدى » النبوة ، وتبعه أكثر قومه ، وغلب على عمان ، مما اضطر أميرها إلى الاعتصام بالجبال ، كما خرج

---

(١) الطبرى : حـ٣ ، ص ٢٧٤ .

عمرو بن العاص إلى المدينة ليخبر الخليفة أبا بكر بالأمر ، هذا بينما أرسل جيفر إلى الخليفة يطلب منه المعونة وإرسال المدد للتصدى لهذا المتنبئ . ودارت بين القوات الإسلامية التى أرسلها أبو بكر ، وقوات لقيط بن مالك معركة حامية الوطيس «بدبا» انتهت بانتصار المسلمين ، وقتل عشرة آلاف من المرتدين ، غير السبى والغنائم التى وقعت فى أيدى المسلمين ، ولتعود الأمور إلى سابق عهدها فى عمان(١) .

ويهمنا ونحن ندرس حركة الردة ان نوضح ما يلى :

أولاً : أن حركة التنبوء ظهرت فى أواخر أيام النبى وأنها كانت فى مناطق العصبيات الكبرى أو فى المناطق التى كانت قد شهدت من قبل ملكًا أو رئاسة .

ثانيًا : أن هذه الكتل كانت تنافس على زعامة العرب وأنها التفت حول المتنبئين منها لتصل إلى الزعامة عن طريق التنبوء ، لأنها كانت لا ترى لقريش عليها من فضل إلا النبوة .

ثالثًا : أن طلب الملك والرياسة صريح وواضح فى أذهان كل من ادعى النبوة ، أعلنوه صراحة ووعدوا عصبياتهم به .

رابعًا : أن كل هؤلاء المتنبئين لم ينكروا رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، بل أنهم قلدوها واعترفوا بها اعترافا صريحًا أو ضمنيا ، والاعتراف الصريح واضح فى كتاب مسيلمة إلى رسول الله ففيه يقول « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .. » كما كان له مؤذن يؤذن له فيشهد فى الأذان أن محمدًا رسول الله وأن مسيلمة رسول الله .. وطليحة يدعى أن جبريل ينزل عليه بالوحى كما

---

(١) راجع كتابنا : أسس العلاقات السياسية وتطورها بين عمان والدولة الإسلامية من ص ٢٩ - ٤٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

يأتى محمدًا ويفرض الصلاة ولكنه يرى أنها من غـير سـجود .كمـا كـان لسـجاح مؤذن أيضًا .

خامسًا : أن أحد من المتنبئة لم يكن ليدعـو إلى الرجـوع إلى أديـان العـرب القديمـة وأنما كلهم يعتز با لله ويدعو إليه .

سادسًا : أن الردة فى الحقيقـة لم تكـن ردة عـن الإسـلام ، وإنمـا كـانت ردة عـن النظام الذى أقامة الإسلام ، وخرجـوا علـى الدولـة الإسـلامية ، وثـورة علـى رئيس الدولة الإسلامية ، وثورة عل زعامة قريش التى تولت الحكم بعد النبى.

سابعًا : أن المرتدين لم يكن بينهم تضامن جماعى أو اتحاد أو حلف يضمهــم جميعًـا كقـوة واحـدة أمـام سـلطان المدينـة ، فحركتهـم فـى حقيقتهـــا تـنزع إلى الاستقلال والى رفض التضامن .

ثامنا : أنه كان فى كل كتلة من الكتل الخارجة على سلطان المدينة جماعة حافظت على إسلامها وعلى ولائها لحكومة المدينة ، وكانت تنـاوئ .. الخـارجين ، وتنتظر جيوش المدينة للانضمام إليها ومساعدتها فى القضاء على الردة .

تاسعًا : إذا كانت حركـة الـردة تعـد أعظـم خطردهـم الدولـة الإسـلامية وزلـزل كيانها، وخلع أفئدة الكثـيرين مـن صحابـة رسـول ا لله ، فـإن هـذا الخطـر تصدى له رجل ذو عقيدة قوية راسخة ، ترجح كفة إيمانه علـى كفـة إيمـان الأمة ، ألا وهو الصديق أبو بكر الذى قال حين أشار عليـه عمـر وغـيره أن يتريث فى قتال المرتدين، ويقبل منهم الصلاة ، ويعفيهم من الزكاة : «وا لله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » ثم قال لعمـر : « رجـوت نصرتـك وجئتنى بخذلانك ، أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام ، بماذا عســاى أن

اتألفهم ؟ بشعر مفتعل أم بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات ، مضى النبى ﷺ وانقطع الوحى ، وا لله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يـدى » . وا لله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول ا لله لقاتلتهم عليـه ، ولـو لم أجـد أحد اقاتلهم به لقـاتلتهم وحـدى حتى يحكـم ا لله بينـى وبينهـم وهـو خـير الحاكمين . وقد سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتل النـاس علـى ثلاث : شهادة أن لا إلـه إلا ا لله ، وإقامـة الصـلاة وإيتـاء الزكـاة ، فـوا لله الذى لا إله إلا هو لا أقصر دونهـن « ثـم حشـد أبـو بكـر الجيـوش وعقـد الألوية لأحد عشر أميرًا لقتال المرتدين ومانعى الزكاة وهم :

١ - خالد بن الوليد : وعهد إليه أبو بكر بمحاربة طليحة بن خويلـد فـى بزاخـة ، ثم مالك بن نويرة بالبطاح (وهو ماء لبنى سعد) .

٢ - عكرمة بن أبى جهل : وامره بالسير نحو مسيلمة الكـذاب فـى اليمامـة ، ثـم السير إلى دبا بعد القضاء على مسيلمة .

٣ - المهاجر بن أبى أمية : وأمره أبو بكر بمحاربة جنود الأسود العنسى ومسـاعدة الأبناء فإذا ما انتهى من مهمته فعليه بالمسير إلى كندة لينضم لى زياد بـن لبيـد ليكونا يدًا واحدة على المرتدين .

٤ - خالد بن سعيد بن العاص : ووجهته مشارف الشام .

٥ - عمرو بن العاص : أرسله إلى قضاعة وربيعة والحارث فى شمال الحجار .

٦ - حذيفة بن محصن الغطفانى : وعهد إليه أبو بكر بـأهل دبـا ثـم الانضمـام إلى عرفجة بن هرثمة .

٧ - عرفجة بن هرثمة : وكانت وجهته مهرة .

٨ - وشرحبيل بن حسنة : وقد أرسله أبو بكر فى أثر عكرمة بن أبى جهل لقتال مسيلمة . ثم أمره أن يمضى بعد اليمامة إلى قضاعة مددًا لعمرو بن العاص .

٩ - طريفة بن حاجز : ووجهته بنى سليم ومن معهم من هوازن .

١٠ - سويد بن مقرن : وقد سيره أبو بكر إلى تهامة اليمن .

١١ - العلاء الحضرمى : وامره بالبحرين لقتال من إرتد بها من ربيعه .

هذا ويضيف البلاذرى أن أبا بكر أرسل أميرًا آخر هو يعلى بن منبه حليف بنى نوفل بن عبد مناف إلى خولان باليمن .

عاشرًا : لم ينس الصديق خليفة رسول الله أن يزود أمراء البعوث بنسخ من كتاب وجهه إلى المرتدين يأمرهم فيه بمراجعة الإسلام ويحذرهم من نتيجة ارتدادهم، كما سلم امراء بعوثه نسخة من عهده لهم بقتال المرتدين .

حادى عشر : أن هذه الجيوش التى أرسلها أبو بكر حققت فى النهاية انتصارات حاسمة على المرتدين ، ومانعى الزكاة وهزمت العصاة فى كل مكان واضطرتهم إلى الاستسلام ، كما قضت على الوثنية نهائيًا فى الجزيرة العربية ، وردعت كل من تحدثه نفسه بالخروج على الإسلام . كما وطدت خلافة أبى بكر وجعلت الجميع يلتف حوله سواء من بايع الخليفة ومن تثاقل عن البيعة ، فضلاً عن ذلك فإن هذه الجيوش المنتصرة وهذه الانتصارات كللت هامات المسلمين بالنصر ، وإعادت الاستقرار إلى ربوع الدولة الإسلامية ، وأمنت الإسلام فى عقر داره ، وبعثت الثقة بالنفس فى المسلمين الذين تعلقت قلوبهم بأبى بكر الرجل الإول فى المدينة الذى تأكدت جدارته بخلافة رسول الله . واعتز العرب بالخلافة اعتزازهم بالدين الحنيف .

وكان أيضًا من نتائج حروب الردة أن عـاد المرتـدون إلى صوابهـم ، وثـابوا إلى رشدهم ، وحسن إسلام كثير منهم ، وتحقـق للعـرب إلى جـانب وحـدة اللغـة وتجانس النسب وحدة الدين ، بل تولدت عن حركة الردة - التـى كـانت تهـدف إلى القضاء على دولة الرسول فى المدينة وتدمير وحدة العرب التى أقامهـا الإسـلام - مبادئ مثالية وقيم أخلاقية لم تكن واضحة عنـد العـرب مـن قبـل كالجهـاد فـى سبيل الله والشعور الجارف بالقومية ، فما كاد المسلمون يفرغون مـن قمـع الـردة حتى اندفعوا إلى الحدود الشمالية مع الروم ومع الفرس لتأديب الغساسـنة والمنـاذرة ولتحقيق الوحدة السياسية مع مناطق نفوذ هذين الشعبين العربيـين ، وكمـا يقـول الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم « من العجيب أيضًا أن يشترك فـى الجهـاد رجل كان يدعى النبوة وكان رأسا من رؤوس الردة هو طليحة بن خويلد الأسدى الذى أبلى بلاء حسنا فى فتوح العراق وفارس » .

أما عن السر الكبير وراء تحقيق هذه الانتصارات الباهرة فان السير وليـم موير يذكر أن الذى « توج جهود المســلمين بـالنصر إنما هـو شئ واحـد دون سواه ، ذلك هو ما نفثه محمد فى أتباعه المخلصين من الروح التى لا تقهر » .

الفتوحات العربية فى عصر الخلفاء الراشدين

ظهرت الدولة العربية الإسلامية على مسرح الأحداث التاريخية والدولية فى حياة نبى الإسلام ﷺ ، وفى عهده أرسل عليه السلام رسائله إلى الملوك والامراء الذين عاصروه يدعوهم إلى الإسلام ، ومن ذلك رسائله إلى كسرى فارس ، وهرقل امبراطور الروم فى القسطنطينية ، ونجاشى الحبشة . والمقوقس (قيرس) الوالى البيزنطى فى مصر . كما أرسل البعوث إلى شمال الجزيرة العربية لتأمين حدود دولة الإسلام الأولى .

ومن ثم كان رسول الله ﷺ هو أول من وجه أنظار العرب المسلمين إلى خارج حدود شبه الجزيرة ... وإذا كانت قبائل العرب فى حياة رسول الله قد خضعت معظمها لسلطان واحد هو سلطان المدينة تحت راية النبى ، وأنه تألفت ولأول مرة أمة واحدة ، فإن هذه الوحدة قد كتب لها التماسك والقوة والصلابة والتعاظم فى عهد خليفته أبى بكر الذى نجح فى القضاء على الردة ، وتثبيت دعائم الإسلام ، لتعود القبائل العربية إلى الأخذ بأسباب القوة والنظام فى ظل حكومة إسلامية مستندة إلى شريعة إلهية، بحيث لم تمض على وفاة النبى نحو عام حتى خرج العرب فاتحين منطلقين خارج جزيرتهم ، فادخلوا فى حوزتهم بلاد فارس ، والعراق ، وسورية ، ومصر « وبلاد المغرب ، وغلبوا آدابهم وثقافتهم ودينهم على الأمصار التى فتحوها »[1] .

وإذا كان قد « كتب للإسلام تقدم عظيم فى السنوات الثمانى والعشرين أى ما بين سنة ٦٣٢م (١١ هـ) وسنة ٦٦٠م (٤٠هـ) . وعاد المؤمن الحقيقى

---

(١) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية ص ٣٤ .

لا يكون فى الحجاز أو فى صحارى نجد ، بل أضحى مرابطا على شاطئ النيل ودجله والأردن .. « على حد قول سديو عند كلامه عن العرب فى عصر الخلافة الرشيدة وقد اختلف الباحثون فى تعليل دوافعها أو دواعيها فالبعض يرجع حركة الفتوح إلى أسباب اقتصادية ، وجمهور آخر يرى أنها تمت بدافع الجهاد ، وفريق ثالث يرجح العامل القومى ... والاختلاف حول سر حركة الفتوح ودوافعها يدعونا إلى مناقشتها ..

العامل الاقتصادى :

هل يمكن ارجاع حركة الفتوح أو ظاهرة الفتوح إلى دافع اقتصادى أو دواعى اقتصادية ؟ إن بعض الباحثين يرى أن خروج العرب الفاتحين فى عهد الخلافة الراشدة خارج الجزيرة العربية ما هو إلا كواحدة من تلك الموجات والهجرات التى خرجت وهجرت الجزيرة العربية إلى مناطق غنية خصبة نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية فى الجزيرة وبخاصة بعد حروب الردة . مما دفع المسلمين إلى القيام بحركة الفتوح ليضموا إلى دولتهم مناطق غنية تكون لهم ولدولتهم سندا اقتصاديًا قويًا ، ومن القائلين بهذا الراى : كيتانى ، وسبرنجر ، وونكلر ، وبيكر ، ولا منس وأرنولد ، وبرناردلويس وفليب حتى ، وغيرهم ، وحجة هؤلاء التى ساقوها لتدعيم وجهة نظرهم حول العامل الاقتصادى : أن أبا بكر الصديق عندما أخذ فى إعداد الجيوش الإسلامية لتسييرها إلى الشام « كتب إلى أهل مكة ، والطائف ، واليمن ، وجميع العرب بنجد والحجاز ، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع . واتوا المدينة من كل أوب »(١) ، كذلك استند هؤلاء الباحثين إلى ما أورده البلاذرى والطبرى وابن الأثير على لسان رستم قائد الفرس فى حديثه إى المغيرة بن شعبة رسول سعد بن

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

أبى وقاص إليه ، إذا خاطبه رستم بقوله : « علمتم أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه الاضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون» . كما استند هؤلاء أيضًا إلى خطبة لخالد ابن الوليد فى جنده وهو بالعراق عندما قال لهم - يرغبهم فى بلاد العجم ويزهدهم فى بلاد العرب : « ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ؟ ، ووالله لو لم يلزمنا الجهاد فى سبيل الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه من أثاقل عما أنتم عليه(١) .

ولقد انبرى للرد على أصحاب هذا الرأى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه « تاريخ الدولة العربية » وبين أن هذا العامل لم يكن واردًا ضمن دواعى الفتوح ، وأن ما استند إليه القائلون بنظرية العامل الاقتصادى اعتمدوا على عبارات حماسية قالها أما الخليفة أبو بكر إلى المجاهدين أو القائد خالد بن الوليد ليحثهم على الغزو بغية ثواب الجهاد أو غنائم الروم ، كما أن جدب بلاد العرب وضيق معاش البدو الضاربين فى الصحارى لا يعنى أن العرب جميعهم كانوا يعانون من الجفاف والفقر . وعلى العكس فإن موارد بلاد العرب المالية تزايدت فى عصر النبوة ، ثم إن الإسلام نظم الحياة الاجتماعية عند العرب وطبق نظام التكافل الاجتماعى بين المسلمين ، وإذا كانت قد حدثت هجرات عربية سابقة على الإسلام ، نتيجة لاضطراب الأحوال الداخلية أو بسبب الحروب الطاحنة بين الأحباش أو الفرس وبين العرب كما حدث فى هجرة الأزدوتنوخ وكندة ، وحتى هذه الهجرات لم تتخذ شكل موجات عنيفة ، إنما كانت مجرد هجرات بطيئة . وبينما نجد الفتوح العربية الإسلامية تختلف عن الهجرات السابقة لأنها لم تتم نتيجة وقوع اضطرابات داخلية أو أزمات اقتصاددية ، ويرى الدكتور ماجد أنه ليس

---

(١) الطبرى : جـ٤ ، ص ٩ .

لدينا ما يدل على أن حركة الفتح العربى سببها الجفاف أوحتى الجوع وإذا كان العرب الفاتحون قد اختاروا منطقة الهلال الخصيب ميدانا لتوسعاتهم ، فلم يكن ذلك ناتجًا عن رغبة اقتصادية ملحة أو بناء على تفكير مسبق للتوطن والاستقرار فى مناطق غنية .

كما لم يكن هناك ما يشير قط إلى أن حكومة المدينة عندما وجهت حملاتها إلى تلك المناطق كان لديها تخطيط مدبر للنزول فى تلك المناطق الخصبة من الهلال الخصيب مما يجعلنا لا نتقبل الدافع الاقتصادى كأحد دواعى الفتوح وبخاصة فى بداية حركة الفتح . وأنما كانت هناك دولة قائمة فى الجزيرة العربية أدى ظروف قيامها وتوحدها إلى أن تستكمل وضعها الطبيعى وتحافظ على حدودها ، ولكى تستكمل وضعها كان من الضرورى أن تستكمل الوحدة العربية بضم الجماعات العربية التى تقيم على حدود شبه الجزيرة ، وبخاصة أن القبائل العربية فى العراق والشام كانت وثيقة الصلة بأحداث شبه الجزيرة تحس بها وتشارك فيها . وقد رأينا من قبل كيف قدمت سجاح بنت الحارث بجموع قبائل تغلب والنمر التى كانت تعيش فى العراق لتغزو حكومة المدينة ولتحول الرياسة العربية إلى يد هذه القبائل . كما أن البعوث والحملات التى أرسلها أبو بكر إلى تلك الجهات كانت لإخضاع تلك القبائل العربية المتمردة فى قتال العرب والفرس فيما بعد ..

هذا ويرى الأستاذ الدكتور احمد الشريف أن حركة الفتوح بدأت غزوا ولم تكن هجرة إذ لما كان الجيش العربى مكونا من رجال القبائل العربية ، فإن القبائل جرت على عادتها فى حروبها من حمل أبنائها ونسائها وأموالها معها فى القتال ، فالجيش العربى الذى كانت تحارب به الدولة لم يكن جيشًا نظاميًا كالجيوش التى تستخدمها دول الحضارة ، وإنما كان جيشًا قبليًا تلقائيًا . ولم تحدث الهجرة إلا

بعد نجاح الفتوح وإقامة القواعد العربية فكان التهجير عملاً رسميًا تقوم به الدولة بنقل القبائل إلى هذه القواعد للإقامة فيها ، لا على أنه تهجير لذاته ولكن لأن القبائل هى جيش الدولة ، ثم استتبع الأمر بعد تمام الفتوح أن هاجرت قبائل إلى البلاد المفتوحة لتقيم مع فروعها . وكانت حين تهاجر تصبح أيضًا من قوات الجيوش المرابطة فى الأمصار ، وهكذا نرى الفرق واضحًا بين ما ذهب إليه هذا الفريق من المؤرخين (القائل بالعامل الاقتصادى) وبين ما حدث فى حركة الفتوح « ومرة أخرى نرى أن العامل الاقتصادى ليس من دواعى الفتوح عند بدئها . وأن كان لا يمكن إغفاله بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

العامل السياسى :

رد بعض الباحثين خروج العرب للمجال الخارجى والالتحام مع الفرس والروم إلى أن الضرورة السياسية هى التى أملت على أبى بكر إلى أن يدفع بالقبائل العربية للمجال الخارجى للقضاء على روح التمرد لدى هذه القبائل وارضاء لروح القتال الطبيعية ، فكان الجهاد وهو الحرب فى سبيل ا لله ، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة ترضى بالإسلام وتحرض على مصلحته ، لما ينالها من وراء ذلك من غنائم كثيرة ، ولأنها فى نفس الوقت تنفس عن الروح القتالية عندها ، وتجد منفذا عاطفيًا تخرج به عن جمود حياتها الصحراوية الرتيبة والتى كانت من قبل تجد لها منفذا فى قتال بعضها بعضًا ، ذلك القتال الذى حرمه الإسلام بين المسلمين . فكأن القضاء على روح التمرد لدى القبائل العربية وإرضاء روح القتال الطبيعة فيها – كما يذهب أصحاب هذا الراى – كانت هى العامل الأول فى التوسع الإسلامى .

وهذا الرأى وأن بدأ لأول وهلة منطقا سليمًا تمليه الحكمة السياسية على أبى بكر ، إلا أنه منقوض بما وقع فعلاً فإن أبا بكر عندما سير قواته إلى العراق والشام منع القبائل التى كانت قد ارتدت من المشاركة فى الغزو . وإنما اقتصر على من ثبت على الولاء للدولة أثناء حركة التمرد . ولو كان الأمر يتصل بالقضاء على روح التمرد عند القبائل ، لكان الأجدر هو دفع هذه القبائل للقيام بهذه الغزو وشغلها به . فأبو بكر منع هؤلاء الذين تمردوا من الاشتراك فى الغزو عقابًا لهم . وكان هذا العقاب أفعل فى نفوسهم من الهزائم التى لحقت بهم وأصابهم بالخزى والعار . على أن هذا الحظر لم يكد يرفعه عمر فى خلافته حتى اندفعت هذه القبائل العربية – التى سبق لها الردة وعادت إلى حظيرة الإسلام – إلى ميادين القتال بكل طاقاتها لتحقق من النصر ما يرفع عنها عار الردة .

وخلاصة القول حول هذا العامل أن أبا بكر إذا كان قد أظهر من العلم بنوازع نفوس العرب ما جعله يفرض على القبائل المتمردة هذا العقاب (أى منعهم من الاشتراك فى الغزو فى فارس وبلاد الروم) فإنه أظهر من الدقة السياسية والحذر ما جعله يخشى من إشراك هؤلاء المرتدين من أن تحدثهم أنفسهم بإحداث خلل فى صفوف قواته وهم لا يزالون حديثى عهد بهزيمة قد تحملهم على الانتقام.

دافع الجهاد :

ويرى فريق آخر من الباحثين أن حركة الفتوحات الإسلامية كان وراءها باعث عسكرى دينى هو الجهاد . وإن جيوش المسلمين خرجت وراء تيار إسلامى عربى واستندوا فى ذلك إلى أن الخليفة الأول لرسول الله أوصى المسلمين يوم بايعوه بالخلافة بالجهاد . وأنه لما فرغ من القضاء على المرتدين رأى توجيه الجيوش

إلى خارج الجزيرة وكتب إلى جميع العرب يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه كما رأى هذا الفريق من الباحثين أن حملة أسامة بن زيد التى إعدها الرسول ا لله ﷺ لانفاذها إلى جنوب الشام أكبر دليل على رغبته فى التوسع خارج الجزيرة وأن كتبه إلى الملوك والأمراء المعاصرين له دليل واضح على رغبته فى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ويستند أصحاب هذا الرأى إلى آيات قرآنية تؤكد أن ا لله بعث النبى ﷺ إلى كافة الناس بشيرًا ونذيرًا ومنها قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، لتومنوا با لله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيا إلى ا لله بإذنه وسراجًا منيرًا ﴾(٣) ، وقوله عز وجل: ﴿ لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين ﴾(٤) .

والواقع أن الجهاد كا يقصد به الدفاع عن الإسلام ، ومحاربه المشركين أعداء رسول ا لله الذين اضطهدوا المؤمنين به وبرسالته ، لدرجة أن بعض المسلمين هاجر إلى الحبشة أو إلى يثرب ، كما أن البعض الآخر عذب واستشهد لتمسكه بإسلامه . وبالتالى فإن تشريع الجهاد لم يكن يعنى نشر الإسلام فى جميع أنحاء العالم عن طريق الحرب ، إنما كان من أهداف القتال فى الإسلام حماية حرية نشر الدعوة إلى الإسلام ، وحماية العقيدة وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين وتوطيد أركان السلام .

---

(١) سورة سبأ : آية ٢٨ .

(٢) سورة الفتح : آية ٨ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٤٥ .

(٤) سورة يس : آية ٧٠ .

وإذا كان الإسلام قد ظهر في عصر اشتدت فيه الاضطهادات الدينية والمذهبية في فارس وفي بلاد الروم وفي الأقطار التابعة لهما فإن العرب الفاتحين حرصوا تطبيقًا لشريعتهم على التسامح وعلى مبدأ احترام حرية العقائد وترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم ما داموا يدفعون الجزية لأنه لا إكراه في الدين . فالعرب الفاتحون كانوا يعرضون على أهل البلاد المفتوحة أحد خصال ثلاث : أما الإسلام أو الجزية أو الحرب فمن بقى على دينه من اليهود والنصارى دخل فى ذمة المسلمين أى من أهل الذمة وعلى الذميين دفع الجزية للمسلمين وعلى المسلمين حمايتهم وعدم التدخل فى شئونهم الدينية أو التعرض لدور عبادتهم من معابد أو كنائس واديرة فلا يكرهون على دينهم ولا يضاد أحد منهم بل إن أهل الذمة تمتعوا بحرية ممارسة عقائدهم وشارك بعضهم فى إدارة البلاد الإسلامية .

ونخلص من ذلك إلى أن عامل الجهاد كان من أهم العوامل التى حركت المسلمين فى فتوحاتهم ، فقد عول المسلمون بعد اعتناقهم الإسلام على إظهار تضحياتهم فى سبيل نشر الإسلام بالخروج للجهاد فى سبيل الله بالغالى والنفيس فى سبيل إعلاء كلمة الحق ونصرة الدين الإسلامى .

وقبل أن نختم كلامنا عن دواعى الفتوح الإسلامية يهمنا أن نشير إلى العوامل المساعدة التى ساهمت فى الفتوح الإسلامية ، ومنها العوامل النفسية : وأول هذه العوامل النفسية رسوخ إيمان العرب بدينهم وارتفاع معنوياتهم بفضل الإسلام الذى ربط بينهم ودعاهم إلى الاعتزاز بقوميتهم فهم خير أمة أخرجت للناس . كما كان الظفر بالاستشهاد غاية يحرص عليها المسلمون ، ومن ثم أصبحوا لا يبالون بالموت فى ميادين القتال وهذا يفسر لنا سر انتصاراتهم الباهرة تحت لواء الرسول وفى ظل الخلافة الرشيدة .

ومن العوامل التى ساعدت المسلمين على أحراز انتصاراتهم هو وقوف أهل البلاد المفتوحة إلى جانب الفاتحين المسلمين . لأن هؤلاء الأهالى عانوا كثيرًا من نير الروم والفرس . ومن ثم اعتبر هؤلاء الأهالى العرب الفاتحين المخلصين لهم من ظلم الروم وتعسف الفرس بل وجدنا فريقًا من أهل مصر نتيجة لاضطهاد الروم يرحبون بقوات عمرو ، بل وأسهمت أعداد منهم مساهمة فعالة فى القتال فى صفوف العرب ضد البيزنطين . كما وجدنا بعض القبائل العربية فى العراق والشام تنضم إلى القوات العربية الإسلامية الفاتحة بدافع الشعور بالقومية أو العصبية .

أما العامل الثانى المساعد الذى أسهم فى نجاح الفتوح الإسلامية فهو ضعف الدولتين البيزنطية والساسانية الفارسية واضطراب أحوالها فقد انهكت الحروب الطويلة بينهما قواهما كما أدت إلى استنزاف مواردهما وانتشار الفوضى والاضطراب فى جميع المرافق الاقتصادية للدولتين . هذا فضلاً عن الانقسامات المذهبية ، والحروب الأهلية ، وإرهاق الشعوب الواقعة تحت سيطرتهما بالضرائب الباهظة . كل هذا أدى إلى ضعف سيطرتهما على الأقاليم التابعة لهما ، وكراهية أهالى البلاد المحكومة لسياستهما .

ومن ثم كشفت الاشتباكات التى خاضها الروم والفرس عن ضعفهما أمام قوات الدولة العربية الإسلامية الناشئة ... ولذلك كانت الانتصارات المتوالية الباهرة التى حققتها القوات العربية الإسلامية ، وكانت تلك هى معجزة الفتوحات الإسلامية الكبرى .

بداية النزاع على الخلافة بين بنى هاشم وبنى أمية

لم يكن بنو هاشم وبنو أمية على وفاق قبل ظهور الإسلام ، فلما صارت النبوة فى بنى هاشم أعلت رسالة النبى من مكانتهم ، فرجحت بذلك كفتهم على كفة أبناء عمهم فى بنى أمية ، وتجلى العداء بين الفريقين بعد هجرة الرسول إلى المدينة وشروعه فى إخضاع قريش وحلفائها وانتصاره عليهم حيث كان قائد المشركين عقبة بن ربيعة الأموى ، واشتدت العدواة حين خرجت قريش بحلفائها إلى المدينة بقيادة أبى سفيان بن حرب لتثأر لشرفها وسمعتها ولمن قتل من رجالاتها يوم بدر(١) .

وبعد أن فتح الرسول ﷺ مكة سرعان ما أخلص له بنى أمية وأقبلوا جميعًا على الإسلام وأعطى الرسول لبنى أمية بعض ما كانوا يطمحون من كرامة فى الإسلام فقد عامل الرسول أبا سفيان معاملة تنطوى على كثير من التسامح وأبقى له ما كان يتمتع به من نفوذ بين عشيرته فجعل داره أمانًا لمن دخلها .ولما كانت غزوة حنين أعطاه مائة من الإبل من غنائم هوازن ، كما أتخذ الرسول من معاوية ابن أبى سفيان كاتبًا للوحى(٢) .

ويبدو حرص الرسول على إعلاء شأن بنى أمية بعد دخولهم الإسلام ، فأسند إلى كبرائهم إدارة بعض الولايات العربية فجعل على مكة أسيد بن العيص ابن أمية و لم يزل واليًا عليها حتى آخر عهد أبى بكر الصديق ، كما ولى خالد بن سعيد بن أمية على صنعاء ، وإبان بن سعيد على البحرين وعمرو على تيماء وتبوك وفدك وأبا سفيان بن حرب على نجران(٣) .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص١٠٥ طبعة ١٩٧٦ م .

(٢) الجهشيارى : الكتاب والوزارء ص١٢ .

(٣) المقريزى : التنازع والتخاصم ص٤٥ – ص٤٦ .

وفى عهد أبى بكر ولى يزيد بن أبى سفيان قيادة أحد الجيوش التى أنفذها لفتح بلاد الشام وعينه أميرًا على دمشق كما ولى أخاه معاوية على الأردن فلما مات أسند عمر إلى معاوية ما كان لأخيه يزيد . وبذلك أصبح للأمويين نفوذ فى الدولة العربية . وأتيحت لهم الفرصة للتطلع إلى السيادة فازداد حرصهم أول الأمر على الاحتفاظ بإمارة البلاد التى فى أيديهم ثم أخذوا يعملون فى الخفاء للاستحواذ على السلطة .

لم يعهد عمر بن الخطاب لأحد من بنى هاشم بإمارة الجند كذلك لم يول أحدًا منهم فى بلاد العرب . ولا فى البلاد المفتوحة واستبقاهم فى المدينة ليستشيرهم . وعلل البعض سياسة عمر بخشيته من خروجهم على سلطان المدينة إذا ما تفرقوا عمالاً على ولايات الدولة ، ويرى البعض الأخر أن عمرًا لم يولهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ ، وحتى لا يتعرضوا لنقد المحكومين وعتابهم ، يؤيد ذلك قوله لعبد الله بن العباس إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم ... ، والله ما أدرى أصرفكم عن العمل ورفعكم عنه ، وأنتم أهل لذلك ، أم خشى أن يقع العتاب عليكم ، ولابد من عتاب[1] .

طلب المسلمون من عمر بن الخطاب ، ولا تزال جراحه تنزف من الطعنة الغادرة التى سددها إليه أبو لؤلؤة المجوسى أن يستخلف خليفة من بعده فتردد وقال : إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يريد أبا بكر) وأن أترك فقد ترك من هو خير منى (يريد رسول الله) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فقال له رجل : أدلك

---

(١) المقريزى : نفس المصدر ص٥٦ ، محمد حسين هيكل : الفاروق عمر جـ٢ ص٢١٠ - ص٢١٢ القاهرة ١٣٦٤ هـ .

على عبد الله بن عمر فقال بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحـد ويسـأل عن أمر أمة محمد(١) .

ثم كرر عليه القوم طلب الاستخلاف فقال : كنت أجمعت أن أنظـر فـأولى رجلاً أمركم وهو إحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى على بن أبى طالب ثـم رأيت أن لا أتحمل أمركم حيا وميتا ، عليكم هؤلاء الرهط (الجماعة) الذين قـال رسـول الله أنهم من أهل الجنة علـى وعثمـان ابنـا عبـد منـاف وعبـد الرحمـن بـن عـوف ، وسعد بن أبى وقاص خالا رسـول الله ، والزبـير بـن العـوام وابـن عمتـه وطلحة الخير بن عبيد الله . فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوا واليًا فأحسـنوا مؤازرته وأعينوه ، ثم دعا هؤلاء وقال لهم : أنى نظرت فوجدتكم رؤسـاء النـاس وقـادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض الرسول وهو عنكم راض ، أنى لا أخـاف الناس عليكم أن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم ثلاثة أيام يتم فيها الانتخاب بعد موته وقال للمقـداد بـن الأسـود : إذا وضعتمونى فى حفرتى فأجمع هـؤلاء القـوم فـى بيـت حتـى يختـاروا رجـلاً وقـال لصهيب بن سنان : صل بالناس ثلاثـة أيـام وأدخـل عليـا وعثمـان والزبـير وسـعدًا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم ، (وكان غائبا) واحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له فى الأمر ، وقم على رؤسهم فإن اجتمع خمسـة ورضـوا رجـلاً وأبـى واحد فأشـدخ رأسـه بالسـيف وإن أتفـق أربعـة فرضـوا رجـلاً منهـم وأبـى اثنـان فأضرب رؤسهما فإن رضى ثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمـر فـأى الفريقـين حكم له فليختاروا رجلاً منهم فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بـن عمـر فكونـوا مـع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين أن رغبوا عما اجتمع عليه الناس(٢) .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى حـ١ ص٢٥٨ الطبعة التاسعة ١٩٧٩م .

(٢) حسن إبراهيم حسن : نفس المرجع حـ١ ص٢٥٨ - ٢٥٩ .

ولما توفى عمر فى أواخر سنة ٢٣ هـ ودفن جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة عائشة و لم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم ، فقال عبد الرحمن ابن عوف أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال : فأنا انخلع منها قال : عثمان فأنا أول راضى ثم تتابع القوم على الرضى بقيام عبد الرحمن بن عوف بالإشراف على انتخاب الخليفة فدار لياليه يلقى أصحاب ... رسول الله ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ويشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان[١] (وكان عبد الرحمن بن عوف يمت بصلة القرابة لعثمان بن عفان إذا كان زوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهى أخت عثمان بن عفان لأمه) حتى إذا كانت الليلة التى يستكمل فى صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة[٢] وأمر أن يدعو إليه الزبير وسعدًا فدعاهما فبدأ بالزبير وقال أنا وأنت كلالة فأجعل نصيبك لى فأختار قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى .

ولما اجتمع أعضاء الشورى فى اليوم الثالث لوفاة عمر وحضر الناس من المهاجرين والأنصار فقال عبد الرحمن بن عوف : أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم وأنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن على أنفسكم سبيلاً وطلب من الحاضرين أن .. يعاهدوه على إختيار الأفضل ودعا عليا وقال له : عليك عهد الله لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ص١٤٦ مكتبة المعارف - الطبعة الثالثة ١٩٨١م / ١٤٠١ هـ .

(٢) ابن أخت عبد الرحمن بن عوف ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ص١٤٦ ، ١٤٧ .

وسيرة الخليفتين من بعده . وكان عبـد الرحمن يعلـم أن عليـا لا يرضـى أن يتقيـد بسياسة أبى بكر وعمر لذلك رأى أن يحرجه ليفسح المجال لاختيار عثمان وسرعان ما تحقق غرضه فقد تحرج على من أن يعطى العهد خشية أن تضطـره الظـروف إلى عدم الوفاء به وقال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمـى وطـاقتى ، ثـم دعـا عبـد الرحمن عثمان وقال له ما قال لعلى فقال : عثمان : اللهم نعم ، فرفع عبد الرحمـن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يـد عثمـان ثـم قـال : اللهـم اسمـع وأشـهد أنـى جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان ، فأقبل النـاس علـى عثمـان يبايعونـه وبايعه على وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة خلت من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ فأستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤هـ(١) .

ومن هنا نرى أن إنتخاب عثمان كان مصطبغا بصبغة التحـيز نحـو الأمويـين ونتج عن ذلك معارضة بنى هاشم الذين كانوا يطمعون فى أن تكون الخلافة لهم . ولا شك أن عليًا شعر بالمرارة من خدعة عبد الرحمن بن عـوف وتحيزه لبنـى أميـة حيث قال موجهـًا كلامه لبنى أمية ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون(٢) .

عثمان بن عفان :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بـن عبـد شمـس بـن عبـد منـاف الأموى القرشى وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد منـاف ولـد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله وكان تقيا ورعا يصوم الدهر هجادًا بالليل كثير الدموع عند ذكـر النـار نقـى السـريرة حليمًـا متواضعًـا رفيقًـا بالنـاس كريـم

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ص١٤٦.

(٢) الطبرى : جـ٥ ص٣٧ ، ابن الأثير : جـ٣ ص٣٠ - ٣١ .

الأخلاق حسن السيرة ، حييًا عفيفًا كان من السابقين إلى الإسلام زوجه النبى ابنته رقية وهاجر إلى الحبشة ورجع إلى مكة قبل هجرة المدينة ، وحضر مع الرسول كل غزواته عدا بدرًا حيث خلفه الرسول لتمريض رقية التى توفيت عقب غزوة بدر ، ثم زوجه الرسول ابنته الثانية أم كلثوم (ولذا يلقب بذى النورين) وكان سفير الرسول فى صلح الحديبية وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد انفق من ماله كثيرًا واشترى بئر رومه بماله ثم تصدق بها على المسلمين([1]) .

ولى عثمان الخلافة و لم يشأ أن يغير من سياسة عمر شيئًا فقد أبقى على نفس النظم والأوضاع التى أقرها عمر بن الخطاب دون تغيير وكتب إلى أمراء الأجناد يحث على إتباع سياسة عمر بعد وفاته ، لأنه كان يشفق أن يتعجل الإمام من بعده فى عزلهم وتولية غيرهم وبذلك يقطع ما أستأنف العمال من أعمالهم ، كما يضطرب أمر المسلمين فى الأمصار والثغور ، وقد أجاز عثمان هذه الوصية والتزم بها كما ألزم العمال فى عهده بالسياسة التى كان يأخذهم بها .

لم يكد ينقضى عام على خلافة عثمان حتى أسرع فعزل ولاة عمر بن الخطاب وعين رجالاً من قريش بدلاً منهم فعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولى عليها سعد بن أبى وقاص الزهرى ثم أسند هذه الولاية إلى الوليد بن عقبة بن أبى معيط سنة ٢٥هـ وعزل أبو موسى الأشعرى عن البصرة بعد ست سنين من وفاة عمر وأختار لها ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩هـ([2]) .

---

(١) حسن إبراهيم حسن: جـ١ ص٢٥٦. ورومه هذا كان يهوديًا يضن بماء البئر على المسلمين.

(٢) الطبرى : جـ٣ ص٣١٩ .

وكانت ولاية الأردن ودمشق قد اجتمعت لمعاوية بن أبى سفيان فى عهد عمر فلما ولى عثمان الخلافة أقره عليها ثم ضم إليه فلسطين وحمص وقنسرين وبذلك أصبح واليًا على بلاد الشام كلها لسنتين من إمارة عثمان أما مصر فكان يليها عمرو بن العاص فعزله عثمان وولى بدله عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان أخا عثمان من الرضاعة([1]) .

وقد حدث ما كان يتوقعه عمر ، فقد ضعفت الإدارة فى النصف الأخير من خلافته بعد أن تخلص من عمال عمر الذين كانوا من عقلاء الأمة وكان من أثر سياسته فى تعيين ولاته وقصر مناصب الدولة على أقاربه أن قويت المعارضة ضده وأصبح بعض أهل الشورى كعلى وطلحة والزبير فى عداد المعارضين لسياسته . وقد أنكر على بن أبى طالب على عثمان إيثاره قرابته وضعفه أمام العمال بقوله : إن عمر بن الخطاب كان إذا ولى شخصًا فإنما يطأ على رأسه أن بلغه عنه حرف ... وأنت لا تفعل ضعفت وترفقت على أقربائك فقال له : عثمان هل تعلم أن عمر ولى معاوية فقد وليته فقال على : أنشدك الله هل تعلم إن معاوية كان يخاف من عمر أكثر مما كان يخاف منه غلامه يرفأ ، وعاب على على عثمان أن معاوية يقطع الأمور ويخبر الناس أن ذلك أمر عثمان([2]) .

كان بالمدينة من المهاجرين والأنصار رجال ساءهم ما وصل إليهم من أعمال عثمان التى رأوا أنها تخالف سيرة الخليفتين فى سياسة المسلمين وخروجًا على رسمة الدين ، كما أن الأنصار الذين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من قريش منذ اجتماع سقيفة بنى ساعدة أصبحوا ناقمين عليه لاستئثار بنى أمية بالسلطة والنفوذ([3]) .

---

(١) ابن الأثير : جـ٣ ص٥٨ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) جمال سرور : الحياة السياسية ص٦٠ .

وكانت الولايات الإسلامية تختلف فيما بينها اختلافًا شديدا . فقد كان لبعضهما خطر فى الإدارة والسياسة والحرب ، ومن أهم تلك الولايات الأمصار الأربع الكبرى الشام ومصر والكوفة والبصرة فقد كانت هذه الولايات مصدرًا للقوة والثراء بالنسبة للدولة الإسلامية وكانت من الناحية العسكرية تقابل الثغور أو دار الحرب .

أصبح واضحًا أن عصر عثمان يختلف عن عصر عمر بن الخطاب بسبب تغيير الأوضاع فى الولايات بعزل ولاة عمر وتعيين بعض أقاربه وبسبب ما أحدثه من تغيير فى السياسية العامة الإدارية منها والمالية .

سياسية عثمان الإدارية :

استعان عثمان كغيره من الخلفاء بأجهزة مختلفة لإدارة شئون الدولة فقد كان من أهم مظاهر الإدارة السليمة ، سواء فى عهد الرسول ﷺ أو فى عهد أبى بكر الصديق إيجاد جهاز من الكتبة الأكفاء وقد اتبع عمر نفس الأسلوب ثم جاء عثمان وأتخذ كاتبًا خاصًا له هو مروان بن الحكم الذى أصبح له دور كبير فى تسيير الأمور فى الدولة وفى سياستها بصفة عامة وكان اختيار مروان بن الحكم لهذا المنصب الهام مثار للنقد الموجه إلى سياسة عثمان الإدارية والمالية . وكان من كتابه أيضًا عبد الملك بن مروان فقد كان على ديوان المدينة وابن هبيرة الأنصارى على ديوان الكوفة كما أسند عثمان إدارة شئون بيت المال إلى عبد الله بن الأرقم ابن يغوث أحد كتاب النبى المعروفين ومن أشهر كتاب عثمان : عوف بن سعد واثنان من مواليه هما أهيب وعمران بن أبان .

كما عين عثمان قضاة الأقاليم المختلفة ممن اشتهروا بالتقوى والصلاح من بين الناس متبعًا فى ذلك سنة من قبله . ومن أشهر قضاته كعب بن سيور الذى

تولى قضاء البصرة ، ثم عزله وولى على قضائه أبا موسى الأشعرى ثم عاد إليها بعد ذلك كعب بن سيور ، وبقى بها قاضيًا حتى قتل أيام الجمل ، كما عين شرحبيل بن حسنة على قضاء الكوفة وبقى بها حتى قتل عثمان .

وكان العطف من طبع عثمان بن عفان ، إلا أنه كان شديد العطف على ذوى قرباه وكان يرى ذلك ضروريًا حتى يستطيع الاعتماد عليهم فى إدارة الأمصار .

ومع ذلك فقد اتبع عثمان سياسة عمر فى محاسبة العمال إذا بدر منهم شيء يرى فيه الانحراف ، فقد كان يستفسر عن عماله من الوفود ، كما كتب إلى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكونهم ، فقد كثر الدس على الولاة ، واتخذ المغرضون من ذلك سبيلاً للحط من شأنهم كما كان بعض الولاة يدسون إلى الخليفة من يمدحونه عنده ، ومع ذلك اكتفى عثمان بتحذير الولاة والعامة من خطر الانحراف وترك إلى العمال مهمة إدارة الولايات دون أن يتدخل فى شئونهم ، أى جعل الإدارة لا مركزية مع بعض المحاسبة ، على سبيل المثال عزل عثمان سعد بن أبى وقاص عن الكوفة لأنه اقترض من عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال قرض فتقاضاه منه ابن مسعود فلم يقوى على رده ، فتشاتما واختلفا ، وتداخلت بينهما العصبية فبلغ ذلك عثمان فعزل سعدًا واستدعى الوليد بن عقبة وكان عامله على ديار ربيعة بالجزيرة وولاه الكوفة .

ويبدو أن عثمان خشى من أن يؤدى الخلاف بينهما إلى حدوث فتنة وعصبية فى تلك المنطقة الحساسة من الدولة الإسلامية ، و لم يكن اقتراض المال هو السبب المباشر للعزل ، زد على ذلك ، أن سعدًا كان من ولاة عمر بن الخطاب الذين قرر عثمان عزلهم وتولية أقاربه .

وحتى الوليد بن عقبة الذى ترك بابه مفتوحًا للناس منذ أن ولى الكوفة حتى خرج منها تعرض لبعض القول والاتهامات من أهل الكوفة . سنشير إليها فيما بعد .

وكان عثمان لا يتهاون مع الولاة الذين يرتكبون خطأ فى حق الرعية فكان يقول : فأنى آخذ العمال بموافاتى فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى ولا لعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون وآخرون يضربون فيا من ضرب سرًا أو شتم سرًا ، من أدى شىء من ذلك فليواف الموسم ، وليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا فإن الله يجزى المتصدقين .

لا شك أن الزمام بدأ يفلت من يد عثمان ، وقد أحس بذلك عندما كثرت الشكايات من الولاة ، و لم يتبع عثمان أسلوب الشدة الذى كان يأخذهم به عمر ابن الخطاب ، وخاصة من أعلام قريش الذين انساحوا فى البلاد ورأوا الدنيا ورآهم الناس فانقطعوا إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة ، عند ذلك قرر عثمان أن يعقد اجتماعًا فى سنة ٣٤هـ مع أربعة من كبار الولاة وهم ولاة الولايات الكبرى ليتدارس معهم الأمر لعله يجد سبيلاً لدرأ الخطر قبل أن يجتاح الأمصار الإسلامية وتكون الفتنة الكبرى ، وكان هذا الاجتماع انطلاقًا من مبدأ الشورى . فدعا إليه معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عامر وقال لهم : أنكم وزرائى ونصحائى ، وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما رأيتم فطلبوا إلى أن أعزل عمالى وأرجع إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم فقال عبد الله بن عامر : أرى أن

نشغلهم بالجهاد وقال سعد : متى تهلك قادتهم تفرقوا وقال معاوية : اجعل كفالتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام وقال عبد الله بن سعد : أستصلحهم بالمال . فردهم عثمان إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس فى البعوث ليكون لهم فيها شغل ، كما أمرهم أن يحسنوا السياسة وأن ، يتشددوا فى حقوق الله ، وأن يأخذوا الرعية بالحزم وأن يرسلوهم إلى الغزو وأن يقطعوا العطاء عمن ظهر منه عوج أو انحراف .

وكان رأى عبد الله بن عامر أقرب إلى الصواب بشغل الناس بالبعوث وذلك أن الناس كانوا قد شغلوا بالفتوحات فى عهد عمر وكانت تدر عليهم الغنائم فلم يفكروا فى الخروج على الولاة ، أما وقد توقفت الفتوحات فى عهد عثمان وتركوا الجهاد فقد انصرفوا إلى أمور السياسة والمطالبة بأشياء لم يكن بوسعهم المطالبة بها أيام عمر بن الخطاب لذلك فقد كان من الصواب الأخذ برأى عبد الله بن عامر بشغل الناس بأمور الجهاد حتى ينصرفوا عن إثارة القلاقل فى الأمصار .

وكان عثمان قد حذر ولاته من الشائعات التى سرت حولهم وقال لهم : أنى وا لله لخائف أن يكونوا مصدوقًا عليكم ، وما يعيب هذا إلابى .

وكان أصحاب الرسول قد كلموه فى ذلك فقالوا له : يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الذى أتانا ؟ قال : لا وا لله ما جاءنى إلا السلامة وطلب منهم الرأى ، فأشاوروا عليه أن يبعث رجلاً من ثقاته إلى الإمصار لتقصى الحقائق ، فنزل عن رأيهم وبعث محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر إلى مصر وعبد الله بن عمر إلى الشام وغيرهم ولكنهم رجعوا و لم يروا شيئًا أنكره الناس ولا أنكره أعلام المسلمين .

ولكن أصبح واضحًا لدى عثمان أنه ليس ثمة سبيل إلا أن يسلك إحدى طريقين : أما أن يشتد كما أشتد عمر وأن يقف من عامة قريش موقف عمر وأن يوقف فتيانهم عند حدود لا يتعدونها كما كان يفعل عمر وأن يجعل إدارة الأمصار شائعة لا يتولاها إلا القادر على تحمل أعبائها . وأما أن يلين ويترك السبيل أمام قريش تنساح فى الأمصار كما تشاء ، وقد أختار الثانية مكرها وخالف سياسية عمر تجاه قريش التى تتضح فى قوله : « إلا وأن قريشًا يريدون أن يتخذون مال الله معونات دون عبادة ، إلا فأما وابن الخطاب حى ، فلا » .

سياسة عثمان المالية :

لم يستطع عمثان بن عفان أن يلزم الناس التقشف والزهد ، وهو ما كان يفرضه عمر بن الخطاب عليهم بطبعه الزاهد والمتقشف . فقد كان عثمان على العكس من عمر ، فقد تولى الخلافة وهو يناهز السبعين من عمره . وقد كان فى شبابه يحب لين العيش ، ويأكل طيب الطعام ، ويلبس فاخر الثياب وكان يشد أسنانه بالذهب ، وكان كثير المال . وكان يقول أنى أكثر قريش مالا واجدهم فى التجارة و لم أزل آكل من الطعام مالان منه وفى رواية عبيد الله بن عامر قال : كنت أفطر مع عثمان فى شهر رمضان فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر ، وقال بأنه كان يأكل صغار الضأن كل ليلة .

فأذا كان ذلك شأن عثمان فإنه لم يكن باستطاعته أن يطبق على الناس التقشف أو أن يمنعهم من الانسياح فى مناكب الأرض وأن يكونوا فى سعة من العيش وكان لذلك أثره الكبير على سياسته المالية فقد كثرت الأموال ، وأراد أن يوسع بها على الناس فزاد فى أعطايتهم مائة فى المائة بعد أن تدفقت الأموال على المدينة من الأمصار ، وكان بذلك يريد التقرب إليهم ، و لم يتبع سياسة عمر فى الإنفاق من بيت المال إلا بمقدار الحاجة إلى الإنفاق .

وفتح عثمان بذلك أمام الناس بابًا لم يكن إلى إغلاقه من سبيل فيما بعد فقد نبه الناس إلى أنه فى استطاعة الخليفة التوسعة عليهم ما دام المال يتوفر فى بيت المال فإذا ما لمسوا ذلك حق لهم المطالبة بالزيادة فى الأعطيات وقد استبشر الجند واستبشر الناس ، بلين العيش وطيب الحياة وخاصة وأن المقاتلين بدأوا يشعرون بالاستقرار بعد الهياج والتفكير بعد الاضطراب لأن الحروب المتصلة كانت تشغل كل وقتهم وكانت الغنيمة تتدفق عليهم لذلك رأو فى عمل عثمان أنه أعاد الحق إلى نصابه وأعاد إليهم حقهم فى المال الذى أنتزعه منهم عمر ، فأعتبروا أموال الفىء لهم وليس للدولة .

ولكن عثمان ما كان يدرى بعمله هذا أنه زاد الأمر سوءًا عن حسن نية فقد كانت الفروق فى الأعطيات أيام عمر بن الخطاب كبيرة ، وبمضاعفته العطاء ضاعف هذه الفروق من حيث لا يشعر وخلق طبقة من الأثرياء وطبقة أخرى دون الوسط وهم أصحاب الأعطيات الأقل مقدارًا .

وزيادة فى التوسعة على الناس أقر عثمان الأرزاق التى قررها عمر بن الخطاب الذى جعل لكل نفس من أهل الفىء فى رمضان درهمين كل يوم وفرض لازواج الرسول درهمين لكل منهن ، بل وزاد عثمان على ذلك بأن جعل الموائد للناس فى شهر رمضان يأكلون منها .

و لم يقف سخاء عثمان عند هذا الحد ، فأخذ يصل الأعلام من أصحاب النبى فوق ما كان لهم من العطاء المفروض فقد وصل الزبير بن العوام بستمائة ألف درهم ونزل له عن دين كان عنده كما أن ، هؤلاء القوم من الصحابة ساروا على سياسته فى الإسراف فى بناء الدور ، فمن المعروف أن عثمان بنى داره بالمدينة فى سنة ٢٧ هـ بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر وذكر أنه تطاول

فى البناء حتى عـدوا سبع دور بناهـا بالمدينـة ، وكذلـك مـروان بـن الحكـم بنـى القصور بذى خشب ، والزبير بن العـوام بنـى دارًا بـالبصرة كمـا بنـى دورًا بمصـر والكوفة والإسكندرية وبنى طلحة بن عبيـد ا لله داره بالكوفـة وشـيد دارًا بالمدينـة بناها بالآجر والجص والساج كذلك بنى عبد الرحمـن بـن عـوف داره ، ووسـعها وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضائهـا وجعـل أعلاهـا شرفات وكان ليعلى بن منبه عقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار .

وكان من الطبيعى أن ينكر المسـلمون علـى عثمـان ذلـك وينتقـدوا سماحـه لكبار الصحابـة بـالإثراء ، واقتنـاء القصـور وإسـرافه فـى إدرار القطـائع والأرزاق والأعطيات مما أدى إلى ظهور الترف بوضوح فى المجتمع العربى الإسـلامى وعـودة الحجاز إلى حياة الحواضر الحجازية القديمة وانتشار نوع من الرفه لا يتناسب مع ما ساد الدولة العربية من تقشف فى خلافـة الشـيخين فتدفـق الـثروات علـى الحجـاز أغرى الناس بالاستمتاع بالحياة والتنعم واقتناء القيان وسماع الغناء .

وقد أثارت هذه الأعطيات والهبات والإقطاعات وتركزها فى أيدى مجموعة من الصحابة أثارت الطبقات من أصحاب الأعطيات . ولم يكن هـذا الـثراء غريبًـا إذا ما أطلق الإمام يده فى الأموال العامة وأطلق العمال أيديهم فى أموال الأمصـار ولكن الغريب أن تمتد الأيدى كذلك إلى أموال الصدقة لا للإنفـاق فـى وجوههـم بل على العطاء وصلة الرحم ، ولذلك احتاج بيت المال إلى مواجهة نفقات الحرب والسلم ما دعا إلى التشدد مع الرعية واستعمال العنف فـى جبايـة الخـراج والجزيـة والزكاة . ولهذا السبب كانت شـكوى المصريـين مـن تعسـف عبـد ا لله بـن سـعد حينما كان واليًا على خراج مصر إلى جانب عمـرو بـن العـاص الـذى كـان علـى الحرب والصلاة .

واقطع عثمان القطائع الكبيرة فى الأمصار لبنى أمية من أقاربه ، فقد اقطع عثمان عبد الله بن سعد أرض خراج فيما بين النهرين ولعمار بن ياسر قرية استينيا قرب الكوفة واقطع خبابًا صنعاء واقطع سعد بن مالك قرية هرمزان ويرى البعض أنه كان يريد بذلك استصلاح الأراضى وقيل أنهم كانوا يؤدون الخراج عن تلك الإقطاعات .

مضى عثمان فى سياسته المالية وهو يرى أن من حقه الاجتهاد وأنه مسئول أمام الله عن ذلك وأن واجب المسلمين أن يسمعوا له ويطيعوا ومن الحق لهم أن ينصحوا وأن يشيروا عليه فإن شاء سمح لهم وقد فعل فى بعض الأمور وإن شاء أبى عليهم وقد فعل ذلك أيضًا فى بعض الأمور .

وعلى كل حال فقد كانت سياسته المالية مثارًا للنقد الشديد من أكثر الذين عاصروه ومن أكثر المؤرخين أيضًا كما كانت مثارًا للجدل بين المتكلمين المسلمين .

أسباب الفتنة ومقتل عثمان :

علينا أن نجعل الأسباب التى أدت إلى انتشار النفور فى الأمصار ضد سياسة عثمان الإدارية والمالية موضع اعتبار وكنتيجة حتمية لتلك السياسة كما يراها بعض المؤرخين فقد أدت فى النهاية إلى الثورة عليه وإلى مقتله .

١ - هناك أسباب سياسية :

وهى كراهية سكان الأمصار من غير العرب المسلمين للحكم العربى الإسلامى بالإضافة إلى كراهية العرب من القبائل الأخرى لبنى أمية الذين ظهر بوضوح تسلطهم على الحكم فى الأمصار الإسلامية وبذلك انتشرت موجة

الغضب القبلى . فعندما استقرت الأمور فى الدولة العربية الإسلامية وتوقفت عجلة الفتح قليلاً نزل العرب الأمصار وبخاصة البصرة والكوفة وهم أهم مصرين تركزت فيها القوة العربية وكذلك الشام ومصر وزاد نفوذ الصحابة من المهاجرين والأنصار وأغلبهم من قريش وأهل الحجاز على سائر العرب . وقد كان للقبائل الأخرى قدم فى الفتوحات لذلك كانوا يرون أنفسهم أحق بالحكم والإدارة من غيرهم وأن الرياسة يجب أن تكون فيهم وأنكروها على قريش وبدأت العصبية الجاهلية تظهر فيهم لذلك أكثروا من الطعن فى ولاة الأمصار الذين عينهم عثمان وهم من قريش وأصبحوا يتصدون لأخطائهم وطالبوا بعزل أمرائه .

٢ - أدرك المحاربون بعد توقف الفتوحات أن الحكومة استأثرت ببعض الغنائم خاصة الأراضى وهى من حقهم وقررت لهم مقابل ذلك الأعطيات التى قررها عمر بن الخطاب بعد وضع الديوان وقد تعرض بيت المال فى بعض الأحيان إلى الهجوم من قبل هؤلاء الجند و لم يكن أحد منهم يجرء على ذلك أيام عمر لحزمه وشدته مستغلين لين عثمان . وكان لهؤلاء دورهم فى مجرى الأحداث فى الأمصار إذا لم يكن لديهم ما يشغلهم .

٣ - أنكر الناس على عثمان أنه رد عمه الحكم بن أبى العاص وأهله إلى المدينة وكان النبى قد أخرجهم منها إخراجًا عنيفًا إذا كان الحكم مجاورًا للنبى فى مكة وكان يسخر منه ويؤذيه وقد تشفع عثمان عند النبى لإعادة عمه فلم يعده ، وطلب ذلك من أبى بكر فأبى وزاد على ذلك عمر بأن زجر عثمان ولكنه عندما استخلف أعاده إلى المدنية وقد لامه فى ذلك أعلام قريش .

وقد شاهد الناس سوء حال الحكم بن أبى العاص عندما عاد إلى المدينةوحال من معه ومن أهله ثم تغيرت حالة فأصبح مقربًا إلى عثمان ويلبس الخز والطيلسان مما أثار غضب الناس .

٤ - ومن الحوادث التى أثارت الغضب على عثمان واتهموه فيها بأنه عطل حدا من حدود الله وخالف نصًا من نصوص القرآن وذلك حين عفا عن عبيد الله بن عمر و لم يقتص منه للهرمزان وجفينه([1]) وبنت أبو لؤلؤة وكان الهرمزان أميرًا فارسيًا مسلمًا أما الأخران فكانا ذميين وأن الله عصم دماء المسلمين ودماء الذميين ولكن عثمان أهدر دم الهرمزان و لم يقتل عبيد الله بن عمر ولذلك ذكر معارضوا عثمان أن أقامة الحد على عبد الله بن عمر واجبة بنص القرآن ولكن عثمان رفض قائلاً : قتل أبوه بالأمس ويقتل ابنه اليوم . وكانت هذه المسألة جدلية أيد فيها السنة المعتزلة رأى عثمان وأنه له حق العفو لأنه ولى المقتولين ومن حق الوالى أن يعفو ويدفع الدية كما أشار عليه عمرو بن العاص بينما يرى الشيعة وعلى وبعض الصحابة بأنه ليس لعثمان الحق فى ذلك فقد بينه القرآن بنصه صريحًا([2]) .

٥ - قصة الوليد بن عقبة بالكوفة :

ومن أقارب عثمان الذين تولوا إدارة الولايات الوليد بن عقبة بن أبى معيط وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، فقد عزل عثمان سعد بن أبى وقاص سنة ٢٥هـ عن الكوفة ، وعين عليها الوليد([3]) الذى كان يكنى أبو دهب وكان عاملاً على غرب الجزيرة لعمر بن الخطاب ، وبدأ الطعن فى الوليد منذ أن تولى ولاية الكوفة فقد ذكر أن شخصًا يدعى أبو زبيد وفد على الوليد فى الكوفة وكان أبو زبيد يخرج من منزلة حتى يشق الجامع إلى الوليد بداره وهو سكران ، وقد دفع الغضب

---

(١) وجفينة هذا كان رجلاً نصرانيًا والهرمزان كان صاحب تستر وقد قيل انهما والتا أبو لؤلؤة على قتل عمر . ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ص١٤٨ .

(٢) الطبرى : جـ٤ ، ص٢٣٩ ، محمد أمين صالح العرب الإسلام ص٢٠٧ - ص٢٠٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ص١٥١ .

الناس إلى اقتحام دار الوليد ولكنه ستر الأمور عن عثمان ولذلك اجتمع نفر من أهل الكوفة وعملوا فى عزلة وبدأوا يشيعون عليه أنه يشرب الخمر وذكروا أنه شرب مع ندمائه ومغنيه يومًا من أول الليل حتى الصباح فلما أذن المؤذنون بالصلاة خرج فى غلائله فتقدم إلى المحراب فى صلاة الصبح فصلى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم : فقال عبد الله بن مسعود ما زلنا معك فى زيادة منذ اليوم ، وقيل أنه قرأ بهم فى الصلاة وهو رافع صوته :

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا

فشخص أهل الكوفة إلى عثمان فأخبروه وشهدوا عليه بشرب الخمر وليثبتوا عليه ذلك سرقوا خاتمه وهو سكران وأتوبه عثمان وهو فى المدينة فأتى به وأقام عليه الحد وعزله(١) وولى بدله سعيد بن العاص فأستبد بالأموال وأساء السيرة وذكروا أنه كتب إلى عثمان عن اضطراب الأحوال فى الكوفة وتقلص نفوذ أهل الشرف والسابقة فيها ، وازدياد نفوذ الأعراب وتمردهم على طاعة الدولة . فرد عليه عثمان بأنه يفضل أهل السابقة ممن فتح الله عليهم تلك البلاد . ورغم هذا انتشرت الفوضى وعم الاضطراب الكوفة فكتب سعيد ثانية إلى عثمان يقول : إنما هذا السواد قطين لقريش فرد عليه الأشتر بن الحارث ، النخعى : اتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك فقدم الأشتر النخعى فى سبعين رجلاً من أهل الكوفة وأبلغوه سوء سيرة سعيد بن العاص وطالبوا عثمان بعزله عنهم فكره عثمان أن يعزله ، ولكنه اضطر إلى ذلك ، فولى أهل الكوفة على أنفسهم أبا موسى الأشعرى(٢) .

---

(١) الطبرى : جـ٢ ص٢٧٤ - ص٢٧٧ ، المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٣٤٥ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ص١٦٧ .

٦ – موقف أبى ذر الغفارى[١] من سياسة عثمان :

كما كان لأراء أبى ذر الغفارى آثار بعيدة المدى ولعبت دورًا كبيرًا فى إثارة الفتنة وتصعيدها فى الأمصار ، فقد رأى أبو ذر الغفارى أن المجتمع الإسلامى فى الدولة العربية الإسلامية أصبح يتكون من طبقتين : طبقة غنية مترفة وهى الطبقة التى سمح لها عثمان بشراء الأراضى فى العراق وهو فىء عام للمسلمين وهى نفس الطبقة التى أستأثرت بأكبر قدر مع العطاء المقرر للمسلمين والذى ضاعفه عثمان ، وطبقة ثانية هى طبقة الفقراء ورفع شعار المناداة بأن الفىء هو مال المسلمين ودعا الأغنياء إلى الرحمة بالفقراء ونهاهم عن تخزين الأموال[٢] ، ثم ما لبثت معارضة أبى ذر الغفارى أن تطورت ، فأصبحت سياسية فلم يكتف بلوم الخليفة والولاة على إنفاقهم أموال المسلمين فى غير موضعها وإنما صار ينكر على عثمان خروجه على سياسة الزهد التى سار عليها أبو بكر وعمر ، صحيح أنه بحكم وضعه الاجتماعى وإتساع ماله يحتمان عليه أن يعيش فى سعة مع العيش إلا أن ذلك لا يجوز وهو خليفة المسلمين ومثلهم الأعلى فى كل شىء ومنها الزهد والتقشف ولو كان أغنى الأغنياء ، وقد تجنب أبو ذر الخروج على طاعة عثمان رغم معارضته له فلما أمره بالخروج إلى الشام رحل إليها وصار يقول هناك ما قاله فى المدينة . وأنكر على معاوية عدة أشياء منها : أن يقول مال الله وقال : إنما هو مال المسلمين .

---

(١) أبو ذر الغفارى : واسمه جندب بن جنادة على المشهور ، أسلم قديمًا رابع أربعة أو خامس خمسة ... ثم رجع إلى بلاده وقومه حتى هاجر رسول الله إلى المدينة فهاجر بعد الخندق ثم لزم رسول اله وروى عنه أحاديث كثيرة .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ، ص١٦٤ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : الياة السياسية ص٦٢ .

وكان أبو ذر يجمع الناس بالشام ويقـول يـا معشـر الأغنيـاء واسـوا الفقـراء فالتف حوله الفقراء الأمر الذى آثار وأقلـق الإغنيـاء فرفعـوا شـكواهم إلى معاويـة فأرسـل إلى عثمـان يشـكوه فبعـث عثمـان فـى طلبـه ثـم أذن لـه بعـد قدومـه إلى المدينة(١) بالإقامة فى الربذة وهى قرية على مقربة من المدينة وأقطعـه إبـلاً وأعطـاه مملوكين وأجرى عليه زرقًا فبقى بها حتى مات(٢) .

٧ - موقف عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) ودعوته :

ومن الأسباب التى زادت الأمر سـوءًا ظهـور بعـض الشـخصيات المعارضـة لسياسة عثمان والتى صارت تبث روح السخط والتمرد فى نفـوس أهـل الأمصـار من ذلك ما قام به عبد الله بن سبأ الذى يعرف بـابن السـوداء وكـان يهوديًـا مـن أهل صنعاء ثم أعتنق الإسلام أيام عثمان فقد تنقل فـى الأمصـار الإسـلامية محـاولاً إثارة الناس ضد عثمان ثم تنقـل بـين الأمصـار الإسـلامية فـأنتقل مـن الحجـاز إلى البصرة إلى الكوفة فالشام فمصـر وصـار يرسـل منهـا رسـله وأشـياعه فـى البصـرة والكوفة يدعون لعلى ، وكان يتحدث إلى النـاس بـأن لكـل نبـى وصيـا وأن علـى وصى محمد وأنه خاتم الأوصياء بعد محمـد خـاتم الأنبيـاء وبذلـك هيـأ العقـول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علىوصى رسول الله . وأخذ يحرض المصرين على الثورة على عثمان مع التظاهر بالقول بـالمعروف والنهـى عـن المنكـر فاستجاب له عدد كبير من أهل مصر .

٨ - كذلك عاب الناس على عثمان أنه حمى الحمى والله ورسوله قد أباحا الهواء والماء والكلأ للناس أجمعين . وقد اختلف الرواة فمنهم مـن يقـول أنـه حمـى

(١) محمد أمين صالح : العرب الإسلام ص٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ٧ ص١٥٥ ، ١٥٦ .

الحمى لا بل الصدقة وإبله وإبل بنى أمية وخيلها ويقول البعض الآخر أنه لم يحم الحمى إلا لابل الصدقة فقط وكانت حجته أنه أراد أن يكون هناك اختلاف بين الأمراء والدولة فيما يتصل بالمراعى .

٩ - قضية جمع المصاحف على مصحف واحد :

أقدم عثمان على جمع المسلمين على مصحف واحد فجمعت من الأمصار كلها و لم يبق منها إلا مصحف واحد وهو مصحف ابن مسعود فأمتنع أن يعطى مصحفه لوالى الكوفة عبد الله بن عامر الذى كتب إلى عثمان فأمره أن يشخصه إليه فدخل إليه ابن مسعود وكلمه كلامًا غليظًا فأمر به عثمان فجر برجله حتى كسر له ضلعان ، وجمع الناس على قراءة واحدة وأرسل نسخة من المصحف إلى كل مصر من الأمصار ثم أحرقت المصاحف الأخرى وقد استغل مثيروا الفتنة حادثة عبد الله بن مسعود ضد عثمان الذى حاول استرضاء ورد على المفسدين بقوله : أن القرآن واحد جاء من عند واحد .

١٠ - ومن الأسباب التى أثارت الغضب على سياسة عثمان وادت إلى الفتنة سياسته فى التولية والعزل فقد أسند الولايات إلى جماعة من الأحداث لا يصلحون لها ولا يقدرون عليها إلى جانب تسلط هؤلاء الولاة من بنى أمية ومن بين هؤلاء الولاة عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر والذى شكاه أهلها وبعث إليه عثمان بكتاب يتهدده فيه ولكن عبد الله ضرب أعضاء الوفد الذين حملوا الشكوى إلى عثمان فبعث المصريون وفدًا كبيرًا يتكون من سبعمائة رجل فنزلوا بمسجد المدينة وشكوا إلى الصحابة وقد حمل شكواهم إلى عثمان طلحة بن عبيد الله كما بعثت إليه عائشة تلومه لعدم أجابته المصريين بعزل عبد الله بن سعد فطلب من المصريين أن يختاروا رجلاً منهم يوليه عليهم ، فأشاروا عليه بمحمد بن

أبى بكر فكتب عهده وولاه وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار وبينما هم على بعد ثلاثة أيام من المدينة أبصروا غلامًا أسود مسرعًا على بعد فسألوه عن أمره وفتشوه ، فوجدوا معه كتابًا إلى ابن أبى سرح يطلب منه أن يقتل القادمين إليه وأن يحبس من تظلم من المصريين فرجعوا إلى المدينة وقرأوا الكتاب فى محضر من الصحابة فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا وقد حنق على عثمان .

انتشر أنصار عبد الله بن سبأ فى الأمصار وكان من أثر الكتب التى كانوا يرسلونها إلى المدينة كثرة الحديث فى عمال عثمان . وكان عثمان يجهل هذه الحركة إلا أنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينة فأبلغوها عثمان فسألهم المشورة فأشاروا عليه بأن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار للتحقيق فى ذلك فأرسل محمد بن مسلمة الكوفة وسير أسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر إلى الشام . أما عمار بن ياسر فقد استماله السبئية فبقى بمصر وانضم إلى حركتها السرية .

وكان لابد لعثمان من الاجتماع بعماله لبحث القضية فى حضورهم فبعث إليهم يستقدمهم إليه فقدموا وهم : عبد الله بن عامر ومعاوية بن أبى سفيان وادخل عثمان معهم فى المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص وسألهم عثمان عن حقيقة الأوضاع فى الأمصار وعما أشيع فيها من مساوىء العمال فأجمعوا على أنها افتراءات وأراجيف مغرضة لا هدف من ورائها سوى إثارة الفتنة وإن ذلك نتيجة سياسة عثمان فى اللين ورأوا استعمال الشدة مع مشيعى الأكاذيب .

رد عثمان الأمراء إلى أعمالهم و لم يأمر بشىء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال : لا أبيع جوار رسول الله بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى فعرض عليه أن يرسل له جندًا يقيمون معه

بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقـال لا أقـتر علـى جـيران رسـول ا لله الأرزاق بجنـد يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة .

كان التصميم الذى دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك و لم ينهض إلا أهل الكوفة وقد خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمـان من سعيد بن العاص فخرجـوا حتى إذا قـابلوا سـعيدًا ردوه واختـاروا أبـا موسـى الأشعرى . ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهـل الأمصـار أن يتوافـوا بالمدينـة لينظـروا فيمـا يريـدون وأظهـورا أنهـم يـأمرون بالمعـروف وينهـون عـن المنكـر ويسـألون عثمـان عـن أشـياء لتطير فـى النـاس ولتحقق عليه .

فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قـاربت المدينـة فلمـا علـم عثمـان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون فاخبروهما بما يريـدون فقالوا : إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلـوب النـاس ثـم نرجـع إليهـم فنزعم لهم إنا قررناه بها فلم يخرج منها و لم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتـى نقـدم فنحيط به فنخعله فإن أبى قتلناه فرجع الرجلان إلى عثمان وأخـبراه الخـبر فضحـك عثمان ثم أحضر هؤلاء القـوم وجمـع النـاس وأخـبرهم خـبر القـوم فأشـار البعـض بقتلهم فقال عثمان بل نعفوا ونقبل ولا نحاد أحدًا حتى يركب حدًا أو يبدى كفرًا إن هؤلاء ذكروا أمورًا يوجبوها على عند من لا يعلم . قالوا أتم الصلاة فى السـفر وكانت لا تتم ألا وإنى قدمت بلدًا فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك هـو قالوا نعم ، وقالوا : حميت الحمى وأنى وا لله ما حميـت حمـى قبلـى وا لله مـا حمـوا شيئًا لأحد ، ما حموا إلا ما غلب عليـه أهـل المدينـة ثـم لم يمنعـوا مـن رعيـه أحـد واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنـازع ثـم

ما منعوا ولا حموا إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من شاغبة ولا راغبة وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيرًا وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعيرًا غير بعيرين لحجى أكذلك هو قالوا : اللهم نعم ، وقالوا كان القرآن كتبًا فتركتها إلا واحد وأن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو قالوا : نعم ، وقالوا استعملت الأحداث و لم استعمل إلا مجتمعا محتملاً مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى أحدث منهم وقيل فى ذلك لرسول ا لله أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة أكذلك هو قالوا : نعم ، وقالوا أنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء ا لله عليه وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء ا لله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد فعل ذلك أبو بكر وعمر وزعم الجند أنهم يكوهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو قالوا : نعم ، وقالوا : أنى أحب أهل بيتى وأعطيهم فأما حبى فإنه لا يحل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم وأما أعطائهم فأنى إنما أعطى الكبيرة الرضية من صلب مالى أزمان رسول ا لله وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا وإنى وا لله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم على إلا الأخماس ولا يحل لى فيها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلى دونى ولا ينفلت من مال ا لله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى وقالوا أعطيت الأرض رجالاً وأن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهى أسوة أهله ومن رجع إلى أهله يذهب ذلك ما حوى ا لله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء ا لله عليهم فبعتهم بأمر من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فينقلب إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى .

فاكتفى بهذا الدفاع عن نفسه و لم يفعل شيئًا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فتكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا مع أنصارهم كأنهم عمار ثم يتوافدوا بالمدينة لتنفيذ ما عزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمائة والألف وأميرهم جميعًا الفافقى بن حرب ومعهم ابن السوداء وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعًا عروة بن الأصم . وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم بن زهير السعدى ، وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأن ضياعه كانت ببلدهم وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبى بكر وهو ربيب على .

ولما كانوا من المدينة على ثلاثة أيام أرسلوا رجلين كلما عليا وطلحة والزبير وقالا : إنما نأتم هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك وأستاذنا هم والناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهم فرجعا إلى قومهما وأخبروهم الخبر ، فأجتمع من أهل مصر نفرًا أتوا عليا ومن أهل البصرة أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على على وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردًا شديدًا وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم .

وهكذا يئس الثائرون من مناصرة أهل المدينة وزعمائهم فغادروها على أن يعودوا على حين غفلة من أهلها .

لم يكد يطمئن أهل المدينة إلى انصراف وفود الأمصار الثائرة حتى فوجئوا بهؤلاء الثوار مكبرين فى أرجاء بلدهم ونادوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس

بيوتهم فأتاهم على فكلمهم وقال : ماردكم بعد ذهابكم فقال المصريون : أخذنا مع البريد كتابا وقال بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر أخواننا فقال لهم على : كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم ، هذا وا لله أمر أبرم قالوا : فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلى : إن ا لله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا إليه قال : وا لله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال على : وا لله ما كتبت لكم كتابًا ثم تركهم على وخرج من المدينة . ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا : كتبت فينا بكذا فقال إنما هى اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينى با لله الذى لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد أحل وا لله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان . فضربوا حصارًا حول دار عثمان و لم يتجاوز الحصار فى بادىء الأمر الإحاطة بداره فكان الخليفة حرًا يخرج من داره ويصلى بالناس فمنعوه من الصلاة فى المسجد وحصروه فى داره وكان الثائرون من أهل الأمصار يرمون من وراء محاصرة الخليفة إلى ارغامه على خلع نفسه ، ولكنه أبى النزول عن الخلافة وقال أما قولكم تخلع نفسك فلا أنزع قميصًا ألبسنيه ا لله عز وجل وأكرمنى وخصنى به على غيرى .

كان عثمان يفكر وهو محصور أن على بن أبى طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس ، فكانت بينهما مراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد فى تخفيف هذا الحصار عنه ، وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعا فى هذا الأمر ، كما كان بين أهل المدينة من عمل على تشجيع هؤلاء الثوار ونصرتهم ، ثم انضموا إليهم أثناء حصارهم دار عثمان ، بل إن بعض صحابة الرسول بالمدينة

كتبوا إلى إخوانهم الذين تفرقوا فى الثغور يدعونهم لإصلاح ما فسد من أمور المسلمين .

على أن التوتر الذى ساد المدينة من جراء توافد الثوار وحصارهم دار عثمان ما لبث أن اشتد حين علم الثائرون أن عمال الخليفة فى الأمصار قد أجابوا طلب الخليفة فأعدوا الجند لإرسالهم إليه بالمدينة وكان عثمان قد كتب حين تعرض لسخط الناس ونقدهم كتابا إلى معاوية بن أبى سفيان بالشام يطلب إليه أن يمده بجند من عنده ، كما أرسل إلى عبد الله بن عامر بالبصرة نسخة من ذلك الكتاب .

استمر الحصار على عثمان واشتد حتى منعوه الماء وصار الزاد لا يصل إليه إلا خفية وقد قيل أن الحصار استمر أربعين وكان عثمان من حين لاخر يطل عليهم يعظهم ويحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله فلا يعبأون بقوله ، وبينما هو على هذه الحال إذ ناشده رجل من الصحابة يدعى نيار بن عياض الأسلمى أن يخلع نفسه ، فرماه أحد الذين كانوا يدافعون عن الخليفة بسهم أصاب منه مقتلاً فأستاء الثوار وطالبوا بتسليم قاتله ، ولما لم يصلوا إلى تحقيق غرضهم أحرقوا أبواب الدار واقتحموها ، وقتلوا الخليفة فى اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ هـ .

خلافة على بن أبى طالب :

لم يكن انتخاب على على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء فقد انتخب أبو بكر عن رضا الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة وإن كان أعلام الصحابة بالمدينة قد اختلفوا قليلاً إلا أنهم ما لبثوا أن ثابوا إلى رشدهم وأجمعوا

رأيهم على انتخاب أبى بكر وعقب وفاة أبى بكر و لم يكــن ثمـة مجـال للاختــلاف لأنه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته ، وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمــان . غـير أن الحالـة فـى المدينـة أصبحت بعد مقتل عثمان ، تقتضى وجود خليفة قوى يعيـد الأمـور إلى نصابهـا ، فلما مضت خمسة أيام على وفاته حتى أقبل ثوار الكوفة يعرضـون علـى علـى ابـن أبى طالب الخلافة ومعهم جمع كثير من أهل المدينة ويلحون عليه فـى قبـول أمامـة المسلمين ولكن عليا الذى كان يحرص على الخلافة من قبل أصبح الأن زاهدًا فيهــا فلمـا عرضـت عليـه أباهـا فـى أول الأمـر وقـال : دعونـى والتمسـوا غـيرى فإننـا مستقبلون أمرًا له وجوه وله ألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول . ومـا زالوا به حتى اضطر إلى قبول الخلافة خشية الفتنـة ثـم أراد الثـوار أى تكـون بيعتـه عامة كبيعة من سبقه من الخلفاء وطالبوا أهل المدينة بمبايعة على فأسرعوا إلى البيعـة لعلى بالخلافة ولكن أمتنع سعد ابن أبى وقاص وعبد ا لله بن عمر وطلحة بن الزبير فلم يهتم الثوار بسعد وعبد ا لله بن عمر فليس هنـاك فـى الأمصـار الإسـلامية مـن يشايعهم أو يرشحهم للخلافة ، أما طلحة والزبير فأرغموهـا علـى البيعـة وعندمـا بايعا قال لهما أن أحببتما أن تبايعانى وأن احببتما بايعتكما فقال : « بل نبـايعك » وتخلف من الأمصار جمع منهم حسان بن ثابت ورافع بن حديج وفضالة بـن عبيـد وكعب بن عجزة ومسلمة بن مخلد وكعب بن مالك وأبو سعيد الخدرى وزيد بـن ثابت وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان وهرب قوم من أهل المدينـة إلى الشـام و لم يبايعوا عليا .

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا لـه : أنـا قـد اشـترطنا إقامـة الحدود وإن هؤلاء القوم (يعنون الثوار) وقد اشتركوا فى دم هذا الرجل (يعنـون

عثمان) وأحلوا بأنفسهم فقال لهم أنى لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع يقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونك ما يشاءون فهل ترون موضعًا لقدرة على شىء مما تريدون قالوا : لا قال : فلا والله لا أرى رأيا ترونه إن شاء الله أن هذا الأمر أمر جاهلية وأن هؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدًا إن الناس من هذا الأمر إن حركه على أمور فرقة ترى ما ترونه وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فأهدأوا وانظروا ما يأتيكم ثم عود واو وأشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج .

كان على قد نشأ فى الإسلام واقتبس كثيرًا من الروح الإسلامية الحقة فأصبح يرى أن الحق واجب الأتباع ، ومن ثم بدأ عمله بالقضاء على نظام حكومة عثمان وما نتج عنها من الآثار السيئة ولم يكن فى مقدور على الاحتفاظ بولاة عثمان لأنه كثيرًا ما وجه إليه اللوم على توليتهم كما ساءت سيرتهم فى الأمصار وكان عليه عزل هؤلاء الولاة الذين كان ظلمهم وجورهم سببًا فى قدوم الثوار إلى المدينة ومقتل عثمان(١) ، وهنا تقدم المغيرة بن شعبة ينصحه بأن يثبت معاوية على الشام ويولى طلحة والزبير مصر والعراق حتى تستقر الأمور فأبى ذلك كأنه قد وقر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلو شيئًا من أمر المسلمين وإن الإبقاء على واحد منهم يومًا واحدًا نقص فى دينه . ولو كان الأمر قد استتب وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حر فى اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغربية لم تفهم

---

(١) الطبرى جـ٣ ص٤٦٣ .

مع أنه قَبِلَ أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أنه حد من حدود الله .

والحقيقة أن عليا اختار أحسن الولاة سيرة وعدلاً فقد أرسل إلى البصرة عثمان بن حنيف فرحبت البصرة بواليها الجديد ، فقد كان عاملاً لعمر على خراج العراق وقد خبروه وأحبوه ، كما أنه لا يقارن بالوليد بن عقبة أخى عثمان وواليه. ووفد إلى الكوفة عمارة بن شهاب إلا أن بعض أهل الكوفة أعادوا إلى المدينة وهددوه بالموت أن هو حاول العودة إلى الكوفة ثانية لأنهم لا يرضون بغير أبى موسى الأشعرى بديلاً ، فاضطر على إلى إقرار أبى موسى الذى بعث إلى على بيعته وبيعة أهل الكوفة ، وأرسل قيس بن سعد بن عبادة واليا على مصر فرحبت مصر به وأخذ قيس البيعة من أهلها لعلى ، وذهب سهل بن حنيف واليًا من قبل على إلى الشام لكنه لم يكد يصل إلى تبوك حتى لقيته خيل معاوية فلما سألوه عن مقصده أخبرهم أنه ولى أمرة الشام فقالوا له أنه كان عثمان بعثك فأهلاً بك وإن كنت أميرًا من قبل غيره فأرجع إلى من أرسلك فعاد سهل إلى على بالمدينة(١) .

رأى على بن إبى طالب بعد ما وصل إليه من أمر معاوية وعدم إجابته إلى طلب البيعة أن يدعو أعيان المدينة وبينهم طلحة والزبير ليشاورهم فيما يفعل وقال لهم إن الذى كنت أحذركم قد وقع أنها فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستثارت وأنه من الخير القضاء عليها قبل أن يشتد أمرها ثم أخذ يتجهز لغزو الشام فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية (ابن على) واستخلف على المدينة قثم بن عباس وكتب إلى كل من قيس بن سعد وعثمان بن حنيف وأبى موسى الأشعرى

---

(١) الطبرى : نفسه .

بأن يتهيؤا للخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة ليكونوا على استعداد لمقاتلة أهل الفرقة[١] .

موقعة الجمل :

غضب طلحة والزبير على علي لأنه لم يحقق أطماعهما في توليتهما على بصرى والعراق (الكوفة والبصرة) وكانا قد ركنا إلى الهدوء انتظارًا لفرصة تسنح لهما وجاءت هذه الفرصة حينما أعلن معاوية الخلاف والعصيان فبدأ يكشران عن أنيابهما ويبذران بذور الشقاق مستغلين فرصة إنشغال على بمعاوية حتى يرغماه على أن يحارب في ميدانين .

جاء طلحة والزبير إلى علي يطلبان منه السماح لهما بالخروج من المدينة إلى مكة فقال لعلكما تريدان البصرة أو الشام فاقسما أنهما لا يقصدان غير مكة للعمرة[٢] ، وقد اختاروا مكة التي لجأ إليهما أيضًا بعض ولاة عثمان الذين عزلهم على مثل عبد الله بن عامر ويعلى بن أمية ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة وفضلاً عن هؤلاء فأنه كان يقيم بمكة إذ ذاك السيدة عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول وقد كانت في طريقها من مكة إلى المدينة فلما علمت بقتل عثمان والبيعة لعلي عادت أدراجها إلى مكة وقد عرف عنها أنها تبغض عليا بل كانت من المنحرفين عنه . ولكنها مع ذلك لم تخف اعتراضها على كثير من أعمال عثمان وولاته وكانت من أشد نساء النبي إنكارًا[٣] فلما بلغها انتخاب

---

(١) الطبري : جـ٣ ص٤٦٥ ، ص٤٦٦ .

(٢) اليعقوبي : جـ٢ ص١٥٦ .

(٣) طه حسن : علي وبنوه ص٢٩ .

على رأت أن الأمور سارت على غير ما تريد فأعلنت أن عثمان قتل مظلومًا فقدم طلحة والزبير على عائشة ليصبغا حركتها بالصبغة الدينية وهى حركة سياسية ورأى طلحة والزبير أن يحددوا هدفًا واضحًا يدعوان إليه ليكونوا نواة لحركتها فلم يريا خيرًا من الدعوة للأخذ بثأر عثمان الذى كان يحرضان بالأمس على قتله .

رأى البعض قتال على فى المدينة واقترح البعض الآخر قتله بالكوفة واقترح فريق ثالث إلى الشام وأخيرًا استقر على قصد البصرة فقد زعم لهم عبد الله بن عامر أن له بها صنائع فهو واليها السابق وأن هناك من سبيل وأن هناك من يميل إلى طلحة وأمدهم ابن عامر بالأموال الكثيرة وأعطاهم يعلى بن أمية الجمل الذى ركبته عائشة ثم خرجوا إلى البصرة فى ثلاثة آلاف رجل(١) .

بلغ عليا رحيل هؤلاء الثائرين فتناس معاوية والشام وعزم على صد طلحة والزبير عن موطن المال والرجال . وهنا تبدأ نقطة تحول هام فى التاريخ الإسلامى فقد خرج على من الحجاز إلى الكوفة التى أصبحت منذ ذلك الوقت مركزًا للخلافة الإسلامية .

تعذر على على اللحاق بالثائرين فأرسل إلى أبى موسى الأشعرى فى الكوفة ليستنجد بأهلها لكن أبا موسى أبى الخروج مع أهل ولايته ولذلك كتب إليه على يعنفه ويعزله عن عمله واستجاب الكوفيون لعلى فخرج منهم عدد غير قليل سائرين إلى البصرة .

وكان على رغم الخلاف الذى بينه وبين معاوية موضع احترام عدد كبير من المسلمين فى العراق والحجاز أما طلحة والزبير فلم يكونا حائزين لرضاء بعض العشائر ومع ذلك فقد كان على يؤثر السلم ويكره الاحتكام للسيف فاختلف

---

(١) جمال سرور :الحياة السياسية ص٧١ .

السفراء بين الفريقين و لم يجدوا فـى خـلال مشـاوراتهم خـيرًا مـن الصلـح ووضـع الحب وكاد الأمر ينتهى بينهم بالموادعة لكن جيش على كـان يضـم الفريـق الـذى ناهض عثمان وهولاء أبقى عليهم علـى مكرهـا وقـد اتفقـوا فيمـا بينهـم علـى أن يشعلوا نار الحرب بأى طريقة فهاجم بعضهم ذات يوم المعسكر البصرى فثار أهـل البصرة وظنوا أن عليا غدر بهم فأدى ذلك إلى اشتباك الفريقين فـى حـرب طاحنـة فى مكان يقال له الخريبة (موضع بالقرب مـن البصـرة) فـى جمـادى الأخـر سـنة ٣٦هـ ، أنجلت عن هزيمة أصحاب عائشة وطلحة والزبـير فـى واقعـة الجمـل التـى عرفت بذلك نسبة إلى الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشـة وحواليهـا النـاس تحرضهم على القتال وقد انتهت هذه الموقعة بانتصار على ودخوله البصـرة ومقتـل طلحة والزبير ومصرع عشرة آلاف مسلم وبـايعت البصـرة عليًـا واستعمل عليهـا عبد الله بن العباس ورأى على قبل أن يترك البصرة إعادة السيدة عائشة إلى المدينـة فأمر أن تجهز خير جهاز وأرسل بصحبتها أربعين امرأة من نساء البصرة كمـا سـير معها أخاها محمد بن أبى بكر وشيعها أميالاً وسرح به معها يومًا[١] .

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقـين المتحـاربين مـن كـل الوجـوده فـإن طلحـة والزبير وعائشـة خرجوا كما يقـولون للمطالبة بدم عثمـان الـذى سـفك حرامًـا ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين أمـام يرجـع إليـه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه إن إعطـاء الحـق للأفـراد فى أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام فى إقامته أو أتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون لإمامة على صحة فقد كـان المفهـوم

---

(١) الطبرى : حـ٣ ص٥١٨، اليعقوبى : تاريخه حـ٢ ص١٦٠ ، ابن الأثير : حـ٣ ، ص١٠٢.

دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولاً للنظر فى أمر الخلافة وأعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد .

كان على يود أن يطيل إقامته فى البصرة حتى يتيسر له إصلاح أمورها لكن السبئية (أنصار عبد الله بن سبأ) عجلت بالرحيل عنها بغير أذنه فسار فى آثارهم إلى الكوفة ليقضى على ماقد يزعمون تدبيره ثم ما لبث أن استقر بها مقامه واتخذهامقر لخلافته وصار بحكم منها الدولة العربية بأسرها وبذلك فقدت المدينة مكانتها كحاضرة للخلافة(١) .

موقعة صفين :

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولاً وهو الحرب فى صفين إذا انصرف على من البصرة إلى الكوفة ومن هناك وجه اهتمامه إلى بلاد الشام لكى يحمل معاوية بن أبى سفيان عليه الاعتراف بخلافته فأرسل إليه جرير بن عبد الله البجلى يدعوه إلى بيعته لكن معاوية أخذ يماطله ويشاور وجوه أهل الشام ورؤساء الأجناد وأهل بيته فيما طلبه على فأشاروا عليه أن يلزم عليا دم عثمان فأمتنع عن بيعة على بحجة أنه آوى قتلة عثمان فى جيشه ، وأن بيعته ليست مشروعة وأنه ليس لعلى أن يعزله عن ولاية الشام التى ولاه عليها عثمان بن عفان ، فجاء جرير عليا وأخبره بإصرار معاوية على التمسك بموقفه واجتماع أهل الشام معه على قتاله ، وأنهم يبكون عثمان ويقولون أن عليا آوى قتلته وأنهم لا ينتهون عنه حتى يقتلهم أو يقتلوه(٢) .

---

(١) الطبرى : جـ٣ ، ص٥٤٤ ، ص٥٤٥ ، ابن الأثير : جـ٣ ، ص١٠١ ، ١٠٣ .

(٢) الطبرى : جـ٣ ، ص٥٦١ .

استقرار رأى على بعد أن بلغـه موقـف معاوية وأنصـاره بالشـام منـه علـى المسير إليهم بجنده ليردهم إلى طاعته طوعًا أو كرهًا ، فدعا الناس لمحاربتهم فسـارع الكثيرون من أهل العراق إلى تلبية دعوته لأنهم يرون أن الكثرة من المسلمين بايعت عليا ومن ثم أصبحت واجبة الطاعة ، وعليهم مقاتلة أهـل الشـام لإرغـامهم علـى البيعة والطاعة .

ولما اكتملت قوة على بن أبى طالب زحف من الكوفة شمالاً حتى وصل إلى الرقة على نهر الفرات ثم ألتقى بجند الشام وعلى رأسهم معاوية بن أبـى سـفيان – فى سهل صفين فى ذى الحجة سنة ٣٦ هـ فكانت بين الفريقين مناوشات قليلـة . وكان على بن أبى طالب قبل أن يبدأ الاشتباك مع قوات أهل الشام قد اختار ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشـير بـن عمـرو الأنصـارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى ، فلم يرجعوا من عنده بشىء .

كان القوم جميعًا يهابون أن تلتقى جموع الشام بجمـوع العـراق خوفـًا مـن الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العـراق فتخـرج مثلهـا مـن جيش أهل الشام فيتقاتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذىالحجـة فلمـا أهـل المحرم تـوادع الفريقـان إلى انقضائـه طمعـًا فـى الصلـح واختلفـت بينهمـا الرسـل ولكنهم لم ينتهوا إلى شىء ووضح من الموقف أنه لابد من حدوث صدام بين جنـد الشام والعراق(١) .

بدأت الحرب يوم الأربعاء أول صفر ٣٧هـ من غير أن يقـف كـلا الجمعـين وجهًا لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هناك حتـى إذا مضـت سبعة

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية ص٧٦ .

أيام زحف على بجنوده وزحف معاوية بجنوده ودار بين الفريقين قتال عنيف حالف الفوز فيه جند الشام فى بادىء الأمر(١) غير أن جند العراق ما لبثوا أن جمعوا شملهم وكاد الأمر ينتهى بانتصار أهل العراق ولما أحس جند الشام بشبح الهزيمة أشار عليهم عمرو بن العاص برفع المصاحف على الرماح وأن يقولوا هذا كتاب الله حكم بيننا وبينكم ، فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالون نجيب إلى كتاب الله فأبى على وبين لهم أن رفع المصاحف ما هى إلا خديعة ومكيدة لإثارة الفتنة ولكن فريق القراء من جنده أخذوا يلحون عليه فى الاستجابة إلى تحكيم كتاب الله وقالوا له : أجب إلى كتاب إذا دعيت إليه أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان فأضطر على إلى وقف الحرب وأرسل يستطلع رأى معاوية فيما أراده برفع المصاحف فأجابه بقوله : لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه تبعثون منكم رجلاً ترضون به ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يحكما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه .

وقع اختيار أهل الشام على عمرو بن العاص حكما من قبلهم وأختار أهل العراق أبى موسى الأشعرى ورغم أن عليا بين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه خذل الناس عنه فى الكوفة ونهاهم عن الخروج معه حتى اضطر إلى عزله، ولما أراد تولية عبد الله بن عباس رفض أصحابه ذلك كما رفضوا أن يختاروا الأشتر بن مالك النخعى لأنه كان يرى مواصلة القتال حتى النصر فلما تبين له حرص أصحابه على اختيار أبى موسى الأشعرى اضطر على للسير على ما رأوا(٢) .

---

(١) ابن الأثير : حـ٣ ص١١٦ ، ص١١٨ .

(٢) راجع اليعقوبى : حـ٢ ص١٦٥ ، ١٦٦ ، الطبرى : حـ٤ ص٣٧ ، ٣٨ .

اجتمع الحكمان وكتبا صحيفة تضمنت قبول الفريقين المتنازعين تحكيم كتاب الله وألا يتبعا الهوى ولا يداهنان وتحديد مكان اجتماعهما وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما وقد جاء في هذه الصحفية .

« بسم الله الرحمن الرحيم » هذا ما تقاضى عليه على ابن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان أنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ... فما وجد الحكمان فى كتاب الله عز وجل عملا به وما لم يجده فى كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجنديين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لها أنصار على ما يتقاضيان عليه ... وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة ... وأن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وأن رضيا واحبا فلا يحضرها فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أراد من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة ... فشهد من كل فريق عشرة شهود[1] .

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من المسلمين وأنجادهم تعسون ألفًا وهو عدد لم يذهب مثله فى جميع الوقائع الإسلامية من أيام الرسول إلى تاريخها ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى أو رفع ظلم حل بالأمة وإنما كان لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم الرسول وأحق بولاية الأمر ، وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس يطلب دمه المسفوك ظلمًا ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من أدى إليه قتلته .

---

(١) المسعودى : روج الذهب جـ٢ ، ص٢٧٣ ، الطبرى : جـ٤ ص٣٨ ، ٣٩ .

كان معاوية وعلى على تباين (اختلاف) تام فقد كان على يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر النـاس ، وكـان يـرى فـى معاويـة انحطاطًا هائلاً عنه لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عـادوا الرسـول وحـاربوه والذين لم يدخلوا الإسلام إلا كرهًا ولذا فقد كان على وقد بايعـه النـاس بالخلافـة وردوا إليه حقه المسلوب وقد وجد أنصارًا يؤيدونه ولذا فقد كان يظهـر الاحتقـار لمعاوية والترفع عنه وعن رسله ويخاطبهم بأشد ما يخاطب بـه إنسـان ، أمـا معاويـة فإنه كان يرى نفسه عظيمًا من عظماء قريش وابن شيخها أبى سفيان وأكـبر ولـد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن ، عليا أكبر ولدها هاشم بـن عبـد منـاف فهما سيان فى الرفعة النسبية ثم كان يرى النبى والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقـوا به ثقة كبيرة حتى جمعت له الشام كلها فصارت له تلـك الرياسـة العظيمـة والأثـر الصالح فى الثغور الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر إليه بتلك العين التى كان ينظـر بها من كان قبله بدليل أن أول عمل له عزله فرأى أن انضمامه إلى على يحطه عـن تلك المكانة السامية التى نالها ، ثم أنه وجد أمامه شبها تفسح لـه المجـال فـى تلـك المناداة منها أن لم يشترك فى بيعة على كما أن كثيرًا من الصحابة رفضوا بيعة علـى وأن من ندب عليا للخلافة هم الثائرون على عثمان وقتلته ، كما أنه أى علـى قـد آوى الثائرين فى جيشه و لم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم. ولكل هذا فلم يكن من الممكن أن يتفقا فعلى كان يطلب مبايعتـه ولا يزيـد وبغـير ذلك لا يكون صلح فمعاوية يطلب أولاً أن تسلم قتلة عثمان إليه يتقص منهـم ثـم يكون الأمر شورى وكلا الأمرين لا يرضى بها على أما قتلة عثمان فلأنـه لا يـترك حقًا قد ثبت له بالبيعة التى تمت له وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليهـا فكيف بمثل معاوية أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جنـد علـى

لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح الطرفين لذا فهم لا يسكتون عن إشعال نار الفتنة كلما قاربت نارها على الخمود .

ظهور الخوارج :

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى الشام فأما على فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرأونه حتى مر به على طائفة من بنى تميم منهم عروة بن أدية وأعلن اعتراضه على فكرة التحكيم بقوله :أتحكمون فى أمر الله عز وجل الرجال لا حكم إلا لله وثار فى وجه الأشعث وانتهى الأمر بينهما عند هذا الحد[1] وكان ذلك بداية الفتنة التى أدت إلى ظهور الخوارج[2] .

روى الطبرى عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء .

ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ، وأنقسموا على أنفسهم فأبى جماعة من القراء ، وغيرهم من أتباعه - وقد بلغوا أثنى عشر ألفًا أن يدخلوا الكوفة فى بادىء الأمر ونزلوا بحرواء وهى من قرى الكوفة[3] لأنهم اعتقدوا أنهم اخطاءوا بقبولهم فكرة التحكيم لأن حكم الله فى الأمر واضح والتحكيم شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق[4] واتخذوا شبث بن ربعى التميمى أمير القتال قائدًا لهم وجعلوا عبد الله بن الكواء اليشكرى إمامهم فى الصلاة ، ونادى

---

(١) الطبرى : حـ٤ ، ص٣٩ .

(٢) جمال سرور : الحياة السياسية ص٨٠ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب حـ ، ص٢٧٥ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص٣١٤ .

مناديهم أن البيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر([1]) فبعث إليهم على عبد الله بن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم فخرج إليهم على وقال لهم : ما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتكم يوم صفين فبين لهم أنه قبل التحكيم كارهًا وأنهم اضطروا إلى ذلك وأنه عندما لم يجد مفرًا منه طلب من الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله . ثم دعاهم إلى دخول الكوفة فدخلوا معه([2]) على أن الوئام لم يستمر طويلاً بينه وبينهم فسرعان ما نقموا عليه حينما استجاب لدعوة معاوية بأنفاذ أبى موسى الأشعرى إلى مكان اجتماع الحكمين([3]).

كان هؤلاء القوم الذين خرجوا على على بن أبى طالب يرون أن عليا كان إماما بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أن معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر فى القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصا فإن اللين معهم ومهادنتهم إدهان فى دين الله وتحكيم الرجال فيما لا حكم به إلا لله . وهذا فى نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن تبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء وبهذا أصبحنا أمام ثلاثة فرق بعد أن كنا أمام فرقتين وصار عدواه الخوارج ومعاوية .

واصل أتباع على الذين خرجوا عليه بسبب قبول التحكيم مناهضته ، فصاروا إذا ما خطب فى المسجد قاطعوه بقولهم : لا حكم إلا لله فيرد عليهم بقوله : كلمة حق أريد بها باطل . ومازالوا يضايقونه حتى قال لهم : لكم عندنا

---

(١) الطبرى : جـ٤ ص٤٥ ، ٤٦ .

(٢) ابن الأثير : جـ٣ ، ص١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) الطبرى : جـ٤ ، ص٤٨ .

ثلاثًا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم نصيبكم من الفيء ، ما دامت أيديكم من أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا .

لم يلبث هؤلاء الخوارج أن اجتمعوا فى دار عبد الله بن وهب الراسبى فدعاهم إلى الخروج من الكوفة إلى بعض كور الجبال والمدائن ، فلبوا دعوته وبايعوه فى شوال سنة ٣٧ هـ وبذلك اعتزلوا عليا مرة أخرى واتجهوا إلى النهروان حيث لحق بهم خوارج البصرة(١) .

اجتمع الحكمان فى المكان والموعد المحدد لهما والتقيا فى دومة الجندل(٢) فى رمضان سنة ٣٨ هـ واتفقا فى بادىء الأمر على أن عثمان قتل مظلومًا وأن معاوية ولى دمه ، ومن حقه أن يطالب بأخذ الثأر من قاتليه(٣) كما استقر رأيهما على خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين فيختارون لخلافتهم من يرضون و لم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان يقدم أبا موسى فى كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرهم ولا ألم لشعثنا من أمر قد أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة الأمر فيولون منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه وانا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى

---

(١) ابن الأثير : جـ٣ ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) تقع على الطريق الممتد من دمشق إلى المدينة . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ص٢٦٧ .

(٣) الطبرى : جـ٤ ، ص٤٩ ، ٥٠ .

معاوية فإنه ولى عثمان والطالب بدمة وأحق الناس بقيامه وبذلك نقض عمرو ما اتفق عليه مع أبى موسى كما لم يحافظ على العهد الذى أعطاه على نفسه فى صحيفة التحكيم مما أدى إلى تنابذهم ثم انصرف كل فريق إلى ناحية فلحق أبو موسى بمكة وعاد وفد العراق إلى على كما رجع أهل الشام إلى معاوية حيث بايعوه بالخلافة[1] .

وانتصر بهذا الحكم الذى أصدره الحكمان الحزب الأموى لأنه بمقتضاه خلع على من الخلافة أما معاوية فلم يصبه شيء لأنه كان واليًا على بلاد الشام و لم يبايعه أحد بامرة المؤمنين فإذا عزل فإنما يعزل عن ولاية الشام . أما أنصار على فرأوا أن الحكمين اختلفا و لم يعملا بكتاب الله وسنة رسوله كما شرط عليهم ، وهكذا لم يعمل الحكمان على إنهاء الخصومة بين الفريقين وتوحيد كلمة المسلمين بل زادوهم فرقة .

كان على بن أبى طالب يعد العدة إلى الشام لحرب معاوية بعد رفضه نتيجة التحكيم فلما بلغه اجتماع الخوارج بالنهروان بزعامة عبد الله بن وهب الراسبى كتب إليهم يدعوهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه يتهمونه بالكفر فقرر أن يدعهم ويسير بجنده إلى الشام واجتمع له نحو سبعين ألف جندى وعكسر بالنخيلة وبينما هو هنالك بلغه أن الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا عبد الله بن خباب بن الأرث – وهو من خيار الصحابة كما قتلوا عدة نساء وسبوا فرأى أصحاب على فى الكوفة أن ينهضوا أولاً لقتال الخوارج حتى إذا فرغوا منهم اتجهوا إلى أهل الشام فلم يجد بدأ من موافقتهم فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم إنى تارككم وكاف عنكم حتى القى أهل

(١) جمال سرور : الحياة السياسية ص٨٢ .

الشام فلعل الله يقلب قلوبكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم ولكنا نستحل دماءهم ودماءكم و لم تنجح فيهم الخطب والوصايا فحارب على من بقى مع ابن وهب من الخوارج فقتل ابن وهب ومعظم من معه ، ولما تم لعلى الظفر أمر الناس بالتوجه إلى عدوهم بالشام فطلبوا منه مهلة يستريحوا فيها ... ويستجمعوا قواهم فلما نزل النخيلة خارج الكوفة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم استعداد للقتال فأقاموا هناك أيامًا ثم تسللوا من معسكرهم حتى خلا المعسكر منهم فأمهلهم على بعض الأوقات لعلهم يفكرون فى النهوض للحرب إلا إنه رغم خطبه التى ألقاها فيهم فقد تخاذلوا وآثروا الإقامة فى الكوفة(١) .

وبينما كان على يلقى الشدائد على يد أصحابه كان معاوية يغير بجيوشه على أقطار الدولة فأنفذ جيشًا من أهل الشام إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص فقدمها سنة ٣٨هـ وقد تمكن هذا الجيش من هزيمة واليها محمد بن أبى بكر وجنده . وهكذا أصبحت مصر تابعة لمعاوية ووليها عمرو بن العاص ومنحه حق استغلالها مدى الحياة(٢) .

كذلك عمد معاوية إلى توجيه الحملات إلى أطراف العراق فأرسل النعمان ابن بشير إلى عين التمر سنة ٣٩هـ ووجه سفيان بن عوف للإغارة على هيت والأنبار كما سار معاوية بنفسه حتى شارف دجلة ثم عاد إلى الشام(٣) . مستهدفًا إثارة الرعب والفزع فى قلوب أهالى البلاد وإظهار ما بلغه سلطان على من الضعف .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٨٤ .

(٢) ابن الأثير : حـ٣ ، ص١٤١ .

(٣) الطبرى : حـ٤ ، ص١٠٢ ، ١٠٣ .

وكان للنجاح الذى أحرزته قوات معاوية فى أطراف العراق دافعًا لأن يرسل حملات أخرى إلى بلاد العرب . فأرسل سنة ٤٠ هـ بسر بن أبى أرطاه إلى الحجاز ، فاستولى على المدينة ، ثم دخل مكة وأكره أهلها على البيعة لمعاوية ، ثم سار بعد ذلك إلى اليمن[١] .

وإزاء هذه الغارات التى شنها معاوية على أقطار الدولة الإسلامية دعا على أصحابه لمواصلة القتال ضد أهل الشام ، فاستجابوا لدعوته . وبايعه أربعون ألفًا من أهل العراق على القتال حتى الموت . وزاد حماسهم للتخلص من معاوية عندما بغلهم أن معاوية ذهب إلى بيت المقدس وأخذ البيعة لنفسه سنة ٤٠ هـ .

وبينما على يستعد للمسير بجيشه لقتال معاوية طعنه أحد الخوارج ويسمى عبد الرحمن بن ملجم المرادى فى مسجد الكوفة فمات متأثرًا بجراحه فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ .

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية ص٨٨ .

عصـــر الدولة الأموية

تمت البيعة للحسن بن على بالخلافة بعد مقتـل أبيـه سـنة ٤٠ هـ . ونهـض لمحاربة معاوية حينما بلغه مسيرة معاوية ، وسار معه عدد ضخم من أهل العـراق ، غير أن معاوية كان من الدهاء . بحيث أرسل من أذاع فى عسكر الحسن أنـه (أى الحسن) مدبر أمر الصلح واستطاع أن يؤلب عليـه أهـل العـراق فهـاجموا سـرادقه ونهبوا متاعه ، الأمر الذى أدى إلى زيادة بغض الحسن لهم(١) .

كان الحسن بن على من الذكاء بحيث أدرك القوة الحقيقية لعـدوه ، كذلـك رأى أنه لا يمكن الاعتماد الكامل على القوى المتنازعة التـى بايعتـه ، وكذلـك آثـر قبول شروط الصلح التى أرسلها له معاوية فى الصحيفة البيضاء . ومنهـا أن يسـلم إلى معاوية ولاية أمر المسلمين على أن يعمـل فيهـا بكتـاب الله وسـنة نبيـه وسـيرة الخلفاء الراشدين . وأنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعـده ، وأن يكـون الأمـر شورى بين المسلمين بعد معاوية وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وذراربهم(٢).

وبعد أن تم الصلح بين معاوية والحسن سار معاوية إلى الكوفة وأخـذ البيعـة من أهلها وبذلك تمت له بيعة أهل العراق والشام عام ٤١ هـ(٣) وسمى ذلك العـام عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين ما عدا الخوارج التى كانت خارج هذا الصلح.

---

(١) ابن خلدون : تاريخه جـ٢ ، ص١٨٦ .

(٢) فلهوزن : تاريخ الدولـة العربيـة ص١٠٠ ، ابـن خلـدون : جــ٢ ، ص١٦٨ ، الدينـوى : الأخبار الطوال ص٢٣١ ، الطبرى : جـ٤ ، ص١٢٢ ، ١٢٤ ، طـه حسـين : علـى وبنـوه ص٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) الطبرى : جـ٤ ، ص١٢٦ .

وبعد أن فرغ الحسن من أمر الصلح وبيعة معاوية ، ارتحل بأهل بيته إلى المدينة وأقام بها حتى وافته المنية سنة ٥١ هـ وتحققت بذلك أطماع معاوية واستقرت له الخلافة وأصبح صاحب السلطان المطلق فى كافة الولايات الإسلامية.

تطور نظام الخلافة فى العهد الأموى :

اتخذ معاوية دمشق مقرًا لخلافته وكان من أهم الأسباب فى ذلك وجود معظم العناصر المؤيدة له منذ أن كان واليًا على بلاد الشام وبذلك غدت دمشق العاصمة الجديدة للخلافة ونقل معاوية بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق ، كما زاد فى عطاء أهل الشام مما كان سببًا فى رضاءهم عن حكمه .

كان معاوية مثال الخليفة المتحضر ، فقد استطاع أثناء تقلده ولاية الشام أن يقف على كثير من نظم الحكم عند الرومان . فلما استخلف أخذ منها ما يلائم عصره ، وابتكر فى الدولة العربية أشياء لم يسبقه أحد إليها فكان أول من اتخذ السرير أو العرش ، وأحاط نفسه بالحراس والحجاب(١) متأثرًا بذلك من النظم الكسروية والرومانية ، وأضاف إلى اللقب الدينى الصبغة السياسية ، فأصبحت الخلافة الأموية تستند إلى الفكرة السياسية(٢) .

كان من بين الشروط التى اصطلح عليها الحسن ومعاوية سنة ٤١هـ أنه ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعد معاوية ، غير أنه لم يعبأ بهذا الشرط . وسعى إلى نقل البيعة لابنه يزيد متأثرًا فى هذا بنظام وراثة الملك الذى عرفته بلاد الشام عندما كانت تحت حكم الرومان .

---

(١) ابن خلدون : جـ١ ، ص٢١٧ .

(٢) جمال سرور : الحياة السياسية ص٩٦ .

ويبدو أن معاوية قد قصد من وراء توريث الخلافة لابنـه يزيـد القضـاء علـى تمـزق الأمة الإسلامية وتجنيبها وقوع الفتنة التى حدثت بعد قتل عثمان بن عفان . ولقـد كان صاحب هذه الفكرة المغيرة بن عصبة ومما يؤكد لنـا صـدق هـذه العزيمـة فـى نفس معاوية هو استجابته لمشورة زياد بن أبيه بالتروى فى الأمر لما كان عليه يزيـد من تعاون وولع بالصيد[١] .

ومن الجدير بالذكر أن فكرة نقل معاوية الخلافة لابنه يزيـد قـد ولـدت فـى ذهن معاوية منذ أمد بعيد يدل على ذلك سعيه لأعداده الإعداد الطيب لتـولى هـذا المنصب فتشير بعض المصادر إلى أن معاوية قد سعى لإعداد ابنه يزيـد منـذ طفولتـه ليجعله فتى من فتيان قريش الذين ينتفع بهم ، فأحسن تربيته وإبقاه معه فى سقيفته (أى فـى داره) للإشـراف عليـه بنفسـه كمـا أشـركه معـه منـذ عهـد مبكـر فـى الصوائف (المعارك الصيفية) وبعث به لحصار القسطنطينية حتى اشتهر بلقب فتـى العرب .

ومن المرجح أن معاويـة الـذى عـرف بدهائـه لم يعمـد إلى اتخـاذ قـرار نقـل الخلافة ليزيد إلا لخشيته من نفرة الناس وأمله فى طاعتهم ، فضلاً عن وجود كثير من المرشحين للخلافة من الصحابة والتابعين ولذا نرى أن معاوية عمل فـى البدايـة على تعيين يزيد دون أن يقرر البيعة حتى يرى مدى صداها فى الأمصـار ، وكتـب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه للقضاء على تلك الدعوة التى بذرها أعداء الأمويين فى وصف ابنه بالخلاعة وشرب الخمر وإيوائه للمغنيين حتى أنهم كانوا لا يدعونـه ألا يزيد الخمور أو يزيد الخليـع . ثـم مـا لبـث معاويـة أن دعـم هـذا القـرار بمبـدأ الشورى وبعد ألا مهد معاوية البلاد واستمال الناس اتخـذ قـراره بالبيعـة لـيزيد فـى

---

(١) الطبرى : حـ٤ ، ص٢٢٤ ، ص٢٢٥ ، ابن الأثير : حـ٣ ، ص١٩٩ /ط

سنة ٥٦ هـ حتى أنه كان يأخذ البيعة بنفسه من وفود الأمصار و لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يأخذ يد المبايع فى يده حتى لو كان كارهـًا للبيعة . ولقد أتاح مجيء الوفود إلى حاضرة الخلافة الفرصة لقيام الاحتفالات الأدبية التى اشترك فيها الخليفة والشعراء والخطباء ومنذ أن ابتدع معاوية أخذ البيعة فى حياته والخلفاء الأمويون يحذون حذوه ، و لم تكن وقفًا على الأبناء وإنما سرت على الأخوة والأقارب .

ولما كان معاوية مطمئنا إلى الشام لطول عهده بها فإنه لم يكن يخشى إلا أهل العراق والحجاز غير أن جهود ولاته نجحت فى العراق فبايعت وفود البصرة والكوفة سنة ٦٠ هـ إلا أن أهل الحجاز الذين لم يألفوا نظام وراثة الحكم الذى ساد بلاد الفرس والروم ، كما أن بلادهم تعد موطن التقاليد الإسلامية والعربية القديمة . فضلاً عمن كان بها من زعماء العرب والإسلام أمثال الحسين بن على بن أبى طالب وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن العباس الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد ، وظلوا على ذلك حتى وفاة معاوية سنة ٦٠هـ .

كان معاوية مثال الحاكم المستنير . ذلك أنه حول الخلافة إلى سلطة مطلقة حينما جمع مقاليد الأمور فى يده ، كم أنه رأى فى صالح الدولة أن تجتمع من بعده على يد رجل واحدحماية لها من التفرق فأبقى كفاحه فى سبيل اتساع رقعة الدولة وتنظيمها دليلاً لا جدال فيه على كفاءته الشخصية حتى وصف بأنه كأنما خلق للملك .

يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٣هـ/ ٦٨٠ - ٦٨٣م) :

أثار معاوية بنقضه العهد الذى أخذه على نفسه الفرقة بين المسلمين كما ترك ليزيد بل للأمويين من بعده مهمة توحيد كلمة المسلمين ، وضم الولايات الإسلامية كلها تحت لواء خليفة واحد . ولم تستمر معارضة زعماء الحجاز لتولية يزيد الخلافة طويلاً إذ تمكن الوليد بن عقبة عامل يزيد على المدينة من أخذ البيعة منهم ، غير أن الخطر جاء من أهل الكوفة إذا أنه لم يكد يتولى يزيد الخلافة حتى شرعوا يفاوضون الحسين بن على بن أبى طالب على الخروج إليهم لمبايعته . فقد كان الحسين من أول المعارضين لتوليه الخلافة ولا عجب فى ذلك لأن الحسين كان غير راضى عن تنازل أخيه الحسن لمعاوية . وإن لم ينقض بيعته لوجود أخيه ولانه قد سبق أن بايعه . ولكن عندما جاء يزيد يطلب الخلافة رفض مبايعته ، لأنه كان يعتبر نفسه صاحب حق فى الخلافة . وقد زعم الشيعة أن عليا نص فى وصيته على تولية الحسين بعد الحسن بالخلافة ، أو أنه قد ورد فى الاتفاقية التى بين الحسن ومعاوية فى أن تكون الخلافة من بعده للحسن مما يجعله أحق الناس بها من يزيد كما يرى أنه أحق بها من يزيد ربما لتجربته وكبر سنه . حتى أنه كان مشهورًا لدى العرب بالسيد . كما أن يزيد على حد قوله كان يشرب الخمر ، بالإضافة إلى ذلك رأى الحسين إنه إذا استمرت الخلافة فى البيت الأموى فقد قضى على نفوذ بنى هاشم .

لبى الحسين دعوة أهلّ الكوفة بالخروج إليهم إلا أن نصرتهم له لم تكن صادقة إذ تفرقوا عنه وبقى فى قلة من أصحابه يقاتلون معه غير أنه قتل فى كربلاء سنة ٦١هـ([1]) .

معاوية الثانى (٦٣هـ / ٦٨٠م) :

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية ص٨٩ ، ٩٩ .

كان لظهور العصبية القبلية فى بلاد الشام بعد وفاة يزيد أثر كبير فى تطور نظام الخلافة . فقد خلفه ابنه معاوية الثانى الذى ما لبث أن أعتزل الخلافة بعد شهرين من توليها وتوفى دون أن يعهد لأحد من بعده(١) . وكان من أثر ذلك أن اشتد النزاع بين عرب الشام على من يتولى الخلافة . وزاد من حدة الموقف اضطراب حاضرة الخلافة لوجود العداء العنصرى بين سكانها من القيسية واليمنية والذى ازداد اشتعالاً عند مجىء الأمويين ونقلهم الخلافة إلى بلاد الشام . هذا بجانب ما كان يعمد إليه الخلفاء الأمويين إلى تقريب إحدى الطائفتين على حساب الأخرى للاحتفاظ بسيادتهم ، فقد كان الأمويين يلجأون إلى تقريب يمانية الشام دون القيسية فأدى تعصبهم لليمانية إلى تضاءل نفوذ القيسية ، رغم أنهم كانوا أصحاب الفتح الذين حاربوا فى الثغور ضد البيزنطيين وقاموا على حمايتها مما جعلهم يبغضون الحكم الأموى ، ولكنه كانوا يكتمون هذا البغض . فى نفوسهم ، لأن معاوية كان جيد السياسة حسن التدبير فاستطاع أن يمنع الاحتكاك بين الطرفين ولذا لم تعلن القيسية عصيانها فى عهد معاوية حتى إذا ما مات معاوية ويزيد راحت تعلن عن تذمرها بالميل إلى عبد الله بن الزبير عدو بنى أمية ومنافسهم ثم ما لبث أن بادرت إلى مبايعته بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى وكتبت له عهدًا بولاية الشام ، كما دعا الضحاك من جانبه القيسية وأمرائهم للاجتماع معه فى دمشق فوفدوا عليه من جميع الأجناد حمص وقنسرين وفلسطين - أما قبائل كلب وقضاعة وغيرهم من اليمنيين بالشام فتعصبوا لبنى أمية وقد جاءوا إلى الجابية قرية من أعمال دمشق يقودهم حسان بن مالك الكلبى ، ثم اجمعوا على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة سنة ٦٤ هـ على أن يؤول الحكم بعد وفاته إلى خالد بن يزيد وبعد خالد يلى الحكم عمرو بن سعيد بن العاص وأن تكون إمارة دمشق لعمرو بن سعيد وإمارة حمص لخالد بن يزيد(٢) .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٣ ، ص٢٠ .
(٢) الطبرى : جـ٤ ، ص٤١٤ .

مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥هـ / ٦٨٣ - ٦٨٤م) :

لما تم أمر الخلافة لمروان بن الحكم خرج من الجابية فى جموع اليمنية إلى مرج راهط[١] حيث توافدت جموع القيسية . وهناك وقعت موقعة مروج راهط التى انتهت بهزيمة القيسية ومقتل قائدهم الضحاك بن قيس الفهرى ، وبذلك توطدت سلطة مروان فى بلاد الشام ، وكان من نتائج هذه المعركة أمرين : أولهما : استقرار الخلافة للأمويين بصفة عامة والفرع المروانى بصفة خاصة .

أما الأمر الثانى فهو إنبعاث روح العصبية القبلية بين عرب الشمال وعرب الجنوب . والتى ستكون سببًا من أسباب سقوط دولتهم . ومن الأمور التى استحدثها خلفاء بنى أمية من الفرع المروانى ، تولتيهم العهد لأكثر من واحد مما ترتب عليه بعث الشقاق فى البيت الأموى ، فقد نقض مروان بن الحكم الاتفاق الذى تم فى مؤتمر الجابية بتولية العهد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز على التعاقب . مما أدى إلى خروج عمرو بن سعيد على بن الملك بن مروان سنه ٧٠هـ. فدعا الناس إلى بيعته بدمشق بينما كان عبد الملك منشغلاً بإخضاع الخارجين عليه بالعراق فلما بلغ عبد الملك ذلك كسر راجعًا إلى دمشق حيث سعيد قد تحصن متأهبًا لمحاربته فلم يزل السفراء يسعون بينهما حتى اطلحا بعد أن تعهد عبد الملك بأن تكون الخلافة من بعده لعمرو بن سعيد . على أن عبد الملك ما لبث أن احتال عليه حتى تخلص منه[٢] .

سار عبد الملك على سياسة أبيه مروان فى لابيعة بولاية العهد فعزم فى بادة الأمر على عزل أخيه عبد العزيز وتوليه ابنه الوليد مكانه غير أن وفاة عبد العزيز أراحته من ذلك . فعهد إلى ابنيه الوليد ثم من بعده سليمان .

---

(١) تقع شمال الجابية إلى الشرق من دمشق .

(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب حـ٣ ص٤٦ - ص٤٧ .

ولا ريب أن نظام أخذ البيعة لأكثر من واحد الذى سار عليه الخلفاء الأمويون أدى إلى عدم استقرار الأمور فى الدولة الأموية فعلاً عن أثارة النزاع والبغضاء بين أفراد البيت الأموى مما ساعد على زوال الخلافة منه فى النهاية .

الوليد بن عبد الملك : (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م) .

يعد عهد الوليد من العصور المضيئة فى تاريخ الأسلام ، فقد ترك له أبوه خزانة عامرة وملك شاسع وقواد قديرون ، وقد صرف همه إلى ناحيتين هما توسيع دائرة ملكه والقيام بأعمال عمرانية هائلة ، كما عمل أبوه على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية ونقل الدواوين من اليونانية (فى الشام) والفارسية (فى العراق وفارس) إلى العربية ، فقد تم فى أيامه نقل الدواوين من القبطية إلى العربية فى مصر. وكما عمل أبوه أيضًا على أن يكون جميع موظفى الدولة من العرب فقد عمل هو على إقصاء الأجانب من الجهاز الإدارى ، فتم بذلك تعريب الدولة وقام بإصلاح الطرق وحفر الآبار وانشاء المدارس فى سوريا والملاجئ للعجزة والمستشفيات .

واتسعت الفتوح فى عهد بفضل قواد قديرين منهم قتيبة بن مسلم الباهلى الذى فتح طخارستان وبخارى وسمر قند وخوارزم وفرغانه حيث احتك بالقبائل المغولية الوثنية واعتنق معظمها الإسلام كما فتح تركستان وكاشغر . كذلك تمكن محمد بن القاسم حاكم مكران من احتلال بلوخستان ثم السند واحتل ميناء الديبل، ثم فتح الملتان جنوب البنجاب ، كما قام مسلمة بن عبد الملك ، باحتلال الطرانة وهى أهم قلعة فى وسط آسيا كما أحتل حصن عمورية وطرسوس فهابته الروم . وفى أفريقية تمكن موسى بن نصير من أخضاع المغرب الأقصى نهائيًا وفتح طنجة وولى عليها طارق بن زيادة وبدأ العمل على فتح أسبانيا .

سليمان بن عبد الملك : (٩٦ - ٩٩ هـ/ ٧١٥ - ٧١٧م)

لم يعمر سليمان فى الخلافة طويلاً ، لذا فلم يقم بفتوحات واسعة عدا فتح جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب . وأهم أعماله غزو القسطنطينية فقد حاصرت جيوشه عمورية ثم القسطنطينية عامًا كاملاً بقيادة مسلمة بن عبد الملك. ويرجع سبب فشل الحملة إلى شدة البرد وعدم إمداد سليمان لها ومناعة أسوار القسطنطينية وخيانة ليو الأيسورى الذى كان محالفًا للعرب ثم إغراه الروم بالتاج فانضم لهم وأطلعهم على مواطن الضعف فى الجيوش العربية .

عمر بن عبد العزيز : (٩٩ - ١٠١هـ / ٧١٧ - ٧١٩م) .

أخذ سليمان البيعة لابنه أيوب لكنه توفى فى حياته فعهد بالخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ثم إلى أخيه يزيد بن عبد الملك ، وكان عمر قبل توليته الخلافة واليا على المدينة ، و لم يكد يتولى الحكم حتى أمر بعودة حملة القسطنطينية إذا كانت سياسته ترمى إلى عدم التوسع ، ولذا فإن قائده السمح بن مالك هزم عندما خالف هذه السياسة وعبر جبال البرانس وتوغل فى فرنسا الأمر الذى أدى إلى مقتله فى تولوز .

وعلى الرغم من أن مدة خلافة عمر بن عبد العزيز قصيرة نسبيًا فلم تزدعلى سنتين وخمسة أشهر . فقد تمت فى عهده انجازات كثيرة . فقد كون عمر مجلسًا استشاريًا من عشرة من الفقهاء وعمل على إزالة المظالم ونال عطف الشيعة لآنه منع السب على المنابر واستمال النصارى بتعويضهم عن كنيسة القديس يوحنا التى أدخلها الوليد فى الجامع الأموى ، وخفف الجزية المفروضة على نصارى قبرص وأيلة ، وساوى بين الموالى والمسلمين فى الحقوق ، وأعظم أعماله الإصلاح المالى

حيث ألغى ضريبة الرأس التى فرضها الحجاج على من أسلم من الذميين لمعارضتها للدين . وابقى الخراج على الأراضى الخراجية حتى لو اشتراها المسلمون أو هجرها أصحابها . وهدأ فى زمنه الخوارج وركنوا إلى الهدوء .

يزيد بن عبد الملك : (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤م)

ولى يزيد بن عبد الملك الخلافة سنة ١٠١ هـ غير أن عهده حفل بالاضطرابات السياسية وقيام الحروب القبلية فى العراق والأجزاء الشرقية من الدولة الإسلامية كان من نتائجها القضاء على آل المهلب الذين أبلو بلاء حسنا فى قتال الخوارج . الأمر الذى أدى إلى عداء اليمنيين للدولة الأموية .

ومن الجدير بالذكر أن يزيدا لم يكن فى حد الخليفة السابق إذ شغف يزيد باللهو والمجون وقضى على الإصلاحات التى قام بها عمر ، وضيق على النصارى ، وترك شئون الدولة وأقام بالبلقاء بالقرب من جاريتيه سلامة وحبابة . وكان هشام أخو يزيد يعيب على أخيه ما كان عليه من سوء السيرة وينتقضه بل أدى ذلك إلى أنه كان يتمنى موته ، مما أدى إلى قيام الجفوة بين الأخوين ، ودارت الكتب بينهما فى ذلك فتصالحا وبقى هشام إلى جوار يزيد حتى توفى .

هشام بن عبد الملك : (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م)

ولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ . وكان الخلفاء بعد موت الخليفة عمر بن عبد العزيز يلجأون إلى فرض ضرائب فادحة لسد النقص الذى أحدثته سياسة عمر بن عبد العزيز أزاء الموالى وإعفائهم من الجزية .

فقد فاجأ هشام بن عبد الملك الموالى بضريبة خراجية لا قبل لهم باحتمالها ، فسار الحارث بن سريج وحارب الأمويين ، وكان يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله

لتخليص المضطهدين ونصرة المظلومين وتمكن بمعونة بعض العرب من الاستيلاء على المدن الواقعة على ضفاف نهر سيحون غير أن أسد بن عبد الله القسرى استرد من الحارث البلاد التى استولى عليها واضطره إلى الانسحاب إلى طخارستان ومنها إلى بلاد ما وراء النهر .

وفى سنة ١٢٠ هـ ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيارا خراسان . فاستطاع أن يوطد دعائم الحكم الأموى فى بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣هـ .

و لم يلبث هشام أن عزل خالد القسرى وولى يوسف بن عمر الثقفى الذى اتبع سياسة ظالمة اغضبت أهالى العراق ، فثار زيد بن على بن الحسين يطالب بالخلافة وأسرع العراقيون إل بيعته إلا أن قوات الأمويين تمكنت من قتله وفر ابنه يحيى إلى خراسان .

وفى شمال أفريقية ثارت الخوارج الصفرية (نسبة إلى المهلب بن أبى صفرة) وانضم إليهم البربر وتمكنوا من القضاء على جيش من الإشراف يقوده ابن حبيب فى معركة الإشراف وتمردت قبائل أفريقية والأندلس ونجح حنظلة بن صفوان فى دخول القيروان وهزيمة الخوارج .

وولى هشام عنبسة بن سحيم الكلبى الذى قتل عند اجتيازه جبال البرانس فأدى مقتله إلى اضطراب الأندلس وقوى الثوار الأسبان فى الجبال بالإضافة إلى سوء العصبية القبلية بين العرب ووحشية البربر فى معاملة السكان وتمكن عبد الرحمن الغافقى من إعادة الهدوء وعبر جبال البرانس وتمكن من فتح نصف جنوب فرنسا وهزم دوق أكتين الذى استعان بشارل مارتل الذى حشد جيشًا ضخمًا هزم به عبد الرحمن بين تور وبواتيه (أو بلاط الشهداء) وكانت هذه المعركة

فاصلة فى التاريخ الإسلامى إذ نتج عنها وقف التوسع العربى الإسلامى فى أوروبا وبقاء المسيحية .

ومن إصلاحات هشام : اهتمامه بتعمير الأراضى وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك فى مكة . غير أنه مما يؤخذ على هشام أمعانه فى الانتقام من العلويين والتنكيل بهم فقد عرف عنه الغلظة وخشونة الطبع . مع غزارة عقله وحمله وعفه وشهرته فى التدبير وحسن السياسة حتى أنه كان يطلق عليه اسم المؤسس الثالث للدولة الأموية .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ / ٧٤٣م) :

كان هشام يكره الوليد الثانى لفسقه وفجوره ، فأبعده إلى الزرقاء فى شرق الأردن ، وقد فكر هشام فى خلعه ، لكن المنية عاجلته وآلت الخلافة إلى الوليد الذى انغمس فى الملذات واللهو طرد أسرة هشام من دمشق مما وغر صدور الأمويين عليه . وغضب على خالد بن عبد الله القسرى والى العراق السابق لأنه لم يوافق على بيعه ولديه الصغيرين ، فأرسله إلى عدوه يوسف بن عمر النخعى والى العراق مكبلا بالحديد فعذبه حتى مات بالكوفة فاوغر ذلك صدور اليمنيين ولما ثار يحيى بن زيد فى خراسان حاربه نصرين سيار واليها وقتله فأغضب بذلك أهالى خراسان فانضموا إلى الدعوة العباسية .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦هـ / ٧٤٣م) :

اغضب الوليد بسوء تصرفاته جميع رعاياه وخاصة الأمويين اليمنيين فاتصل زعماء اليمنيين بيزيد بن الوليد بن عبد الملك وبايعوه بالخلافة واجتمعوا على الوليد فقتلوه . وولى يزيد وكان صالح تقيا ألغى الزيادة فى عطاء الجند التى فرضها الوليد

لارضائهم فسمى « يزيد الناقص » وحفل عهده بكثير من الاضطرابات ، فثار عليه أهل حمص غضبًا لمقتل الوليد وزحفوا على دمشق فهزمهم وأجبرهم على البيعة وثار أهل فلسطين فأخضعهم وفى خراسان أشتد النزاع بين اليمنيين بزعامة الكرماني والمضريين بزعامة نصر بن سيار والى خراسان ، واستغل أبو مسلم الخراسان هذا انزاع فى الدعوة العباسية .

إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦هـ / ٧٤٤م) :

توفى يزيد بعد أن حكم ستة أشهر وولى بعده أخوه إبراهيم بعهد منه لكن سلطانه لم يتجاوز دمشق وضواحيها ، ولم يدم حكمه أكثر من شهرين . إذ لم يعترف بخلافته مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينية ، كما لم يعترف من قبل بخلافة أخيه يزيد الثالث ، فتقدم بجيش كبير مطالبًا فى الظاهر بحق أبناء الوليد فى الخلافة فاحتل قنسرين وزحف نحو دمشق فقابله جيش إبراهيم بقيادة سليمان بن هشام شمالى دمشق فانتصر مروان ، فتراجع سليمان وقتل ولدى الوليد الثانى ونهب أموال الدولة وهرب فتقدم مروان ودخل دمشق وأخذ بيعة أهلها . بل بايعه إبراهيم نفسه .

مروان بن محمد بن مروان : (١٢٧ - ١٣٢هـ / ٧٤٤ - ٧٤٩م)

استفاد مروان خبرة عسكرية واسعة أثناء فترة ولايته على الجزيرة وأرمينية إذ غير التنظيمات القديمة فى الجيش ، فجعل الجيش مؤلفا فى كتائب صغيرة الحركة يقودها جنود نظاميون بعد ان كان يقف زمن الحرب صفا متراصًا لكل قبيلة مكانها وعلمها .

من لأمور الجديرة بالذكر أنه اتخذ حران عاصمة له كى يكون قريبًا من أنصاره القيسيين الأمر الذى أغضب قبيلة كلب فى سوريا ، وكان هذا خطأ من جانب مروان إذ أحيا بتحيزه للقيسيين ضد اليمنيين نار العصبية القبلية ، والتى كان من أبرز أثارها معركة مرج راهط غير أن مروان كان عنيدا يفتقر إلى بعد النظر والميل إلى المسالمة ولكنه كان على الجانب الآخر صبورًا دائب العمل وتحمل المسئولية حتى لقب (بالحمار) ومع ذلك فقد حفل عهده بالثورات فى أماكن عديدة من أرجاء الدولة .

(أ) **فى الشام** : أدى تحيز مروان إلى القيسية إلى تحرج موقفه تجاه اليمنيين الذين أغضبهم منه ذلك وثار أهل حمص فهاجمهم وقتل زعمائهم وثار أهل الغوطة (غوطة دمشق) بدمشق بزعامة يزيد بن خالد القسرى اليمنى ، فأخضعهم مروان، كما تمكن مروان من إخضاع سليمان بن هشام الذى اغتنم فرصة انشغال مروان بقتال فى العراق واحتل قنسرين ، إلا أن مروان عاد سريعًا وهزم سليمان الذى تحصن بحمص فرماها مروان بالمنجنيق مما اضطر سليمان إلى الفرار إلى الكوفة. وتيسر لمروان بذلك أخضاع الشام .

(ب) العراق : بايع الشيعة عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن أبى طالب الذى ثار بالكوفة أماما فحاربه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الوليد الثانى فى العراق ، فهرب إلى خراسان حيث أبو مسلم الخراسانى ولكن سرعان ما أعلن عبد الله بن عمر العصيان ، فأرسل مروان جيشًا بقيادة النضر بن سعيد الحرضى فتقاتل الفريقان ، ثم اصطلحا على قتال الخوارج فشعر مروان بخطورة الخوارج فأمر ابنه عبد الله والى الجزيرة أن يقاتلهم ، لكن الخوارج هزموه فتقدم مروان وهزمهم وقتل زعيمهم الضحاك لكنهم ما لبثوا ان ثاروا فاخضعهم يزيد بن هبيرة قائد مروان .

(جـ) فى اليمن : أما فى اليمن فقد ثار الخوارج بزعامة أبى حمزة الخارجى مستغلين بعدهم عن مركز الخلافة ، فضلاً عن الطبيعة الجبلية لبلاد اليمن ، وتمكنوا من احتلال اليمن والحجاز فأرسل مروان بجيش تمكن من إخضاعهم .

(د) فى خراسان : كان لاشتعال الثورات المستمرة فى بلاد الشام والعراق أثره فى اشتغال مروان عما يجرى فى خراسان ، حيث كتب إليه عامله نصرين سيار يطلب النجدة للقضاء على الدعوة العباسية قبل أن تستفحل لكن مروان لم يستطع أنجاده ، وتمكن أبو مسلم الخراسانى من استمالة اليمنيين ومسلمى فارس وأن يحتل خراان واستطاع قائده فقحملة بن شيب الطائى أن يفتح فارس ويهزم بن عمر بن هبيرة والى العراق ، وتمكن دعاة العباسيين من احتلال العراق والدعوة لعبد الله العباسى بالخلافة فى الكوفة وجمع مروان جيشًا تقدم به إلى العراق فقابله العباسيون بقيادة عبد الله بن على فهزموه فى معركة الزاب الأعلى فهرب إلى فلسطين ثم مصر حيث لاحقه صالح بن على وقتله فى قرية بوصير وتم بذلك القضاء على الدولة الأموية .

* * *

عوامل سقوط الدولة الأموية

مما سبق فى استعراضنا لأحوال الدولة الأموية التى استمرت ما يقرب من مائة عام منذ مقتل على بن أبى طالب وتولية معاوية بن أبى سفيان الخلافة حتى سقوط الخلافة الأموية على يد العباسيين ومقتل آخر خلفاؤهم مروان بن محمد ، فقد كان من الممكن لهذه الدولة أن تستمر لولا أن تكاتفت عوامل عدة عجلت بسقوط هذه الخلافة ومنها :

١ – ولاية العهد لأكثر من واحد : خرج معاوية بن أبى سفيان على الشورى فى حكيم المسلمين حيث خالف الصلح الذى تنازل بمقتضاه الحسن بن على بن أبى طالب عن الخلافة عقب مقتل أبيه وهو أن يترك الأمر بعد وفاته شورى للمسلمين يختارون من يشاؤن لحكمهم ، غير أن معاوية لم يلتزم بذلك بل عمد إلى أخذ البيعة فى حياته لابنه يزيد . غير أن الأمر لم يلبث أن تطور لأكثر من هذا حين ولى مروان بن الحكم عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز على التعاقب ولم يأبه بما كان فى مؤتمر الجابية حيث رضى هو أن يلى الحكم من بعده خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد ، وكان من أثر ذلك خروج عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان .

ومن الجديد بالذكر أن هذا النظام القى بذور الشقاق والمنافسة بين أفراد البيت الأموى وأورثهم الحقد والبغضاء ذلك أنه لم يكد يتم الأمر لأول حتى يعمل على أقصاء الثانى من ولاية العهد وإحلال أحد أبنائه مكانه مما كان يؤدى إلى أيغار صدور بعضهم على بعض ، ولم يقتصر النزاع بين أفراد هذا البيت بل تعداه إلى القواد والعمال فإنه لا يكاد يتم الأمر للثانى حتى ينكل بمن ظاهر خصمه وساعده على اقصائه عن ولاية العهد .

سار عبد الملك على سنة أبيه مروان ، فقد فكر فى خلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد وتولية ابنيه الوليد ثم سليمان غير ان القدر سخر منه فقد مات عبد العزيز قبل أن يخلعه ، ولما ولى الوليد بن عبد الملك عمل على خلع سليمان أخيه من ولاية العهد وجعلها فى ابنه عبد العزيز واستشار ولاة الأمصار فأجابه إلى ذلك الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق وقتيبة بن مسلم والى خراسان ومحمد بن القاسم والى السند وأخذوا له البيعة فى أمصارهم مما آثار نقمه سليمان الذى نكل بهؤلاء الذين كان لهم ضلع فى خلعه وذلك عقب تولية الحكم بعد وفاة أخيه، وكان من حسن حظ الحجاج أن مات قبل وفاة الوليد ، وكانت تلك أمنية الحجاج أن يموت قبل الوليد حتى لا يقع فى يد سليمان ، غير أن وفاته لم تمنع سليمان من أن ينتقم من أهل الحجاج .

٢ – ظهور روح العصبية القبلية : كان انتقال عاصمة الخلافة إلى بلد من البلاد أن يصبح هذا البلد مركز الحكم والقيادة ولما كان الجيش ورجال الحكم موزعين فى سائر القبائل ، فقد كانت عاصمة الخلافة تحوى نموذجًا مصغرًا لمعظم قبائل شبه الجزيرة العربية . وكان استعانة الخليفة بقبيلة من القبائل لتأييد حكمه أو إصهاره لأى منها يضفى على هذه القبيلة مكانة متميزة بين القبائل الأمر الذى يؤدى إلى إثارة روح العصبية بين القبائل .

وبدأت روح العصبية بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية غير أنها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر فى انحلال الحزب الأموى الذى ظل حافظًا لكيانه كحزب سياسى إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التى تعتبر فترة انتقال من الضعف إلى القوة فقد كان عمر صالحًا عادلاً قضى فترة خلافته فى إصلاح ما أفسده من سبقه من خلفاء بنى أمية فنال بذلك رضاء جميع العناصر الثائرة .

فلما كانت خلافة يزيد بن عبد الملك كان هناك نزاعًا بين عرب الشمال والجنوب ، ولما كان الخليفة من عرب الشمال ، فقد أنحاز إليهم ، وكانت هذه الفتنة سببًا فى القضاء على أفراد بيت المهلب بن أبى صفرة رغم ما أبلاه المهلب هو وأبناؤه فى حرب الأزارقة بلاء حسنا ، كما حارب أهل خراسان وخزر الترك، فكان وأسرته كما كان البرامكة فى دولة بنى العباس لذلك لا تدهش إذا انحاز إليهم العنصر اليمنى الذى أصبح خطرًا يهدد كيان حزب بنى أمية ، وكان الخلفاء يعملون على توسيع شقة الخلاف بين هذين العنصرين ، فتراهم ينضمون إلى القيسية حينا والى اليمنية حينا آخر .

وكان من أثر هذا الحادث أن علت كلمة القيسية فعمل هشام بن عبد الملك الذى خلف يزيد على التخلص منهم ولانحياز إلى اليمنية حتى يعيد التوازن بين العنصر القيسى فعزل العمال المضريين وولى مكانهم بعض اليمنيين ألا أنه ما لبث أن تحول عنهم إلى المضريين فولى منهم يوسف بن عمر الثقفى العراق ونصر بن سيار خراسان . وكان مقتل خالد بن عبد الله القسرى زعيم اليمنية من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط بنى أمية وعمل اليمنية على التخلص من سيادة الأمويين . إنحاز الوليد بن عبد الملك إلى جانب المضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمنى مما اثارهم واستغلوا سخط الناس عليه وقتلوه بالاتحاد مع يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ وبايعوا يزيد الذى أنحاز إلى جانب اليمنيين والذين لم يلبثوا أن أساؤا إلى المصريين الذين ثاروا ضدهم إلا أن الوليد استطاع بالتعاون مع اليمنية التغلب على الثورة وسجن زعمائها ، وتوفى يزيد وخلفه أخوه إبراهيم فى الحكم.

وفى عهد مروان بن محمد انضمت القيسية إليه لمناهضة اليمنية التى دبرت قتل الوليد واستطاع هزيمة إبراهيم وأراد أن تكون الخلافة فى ولد الوليد فقتلوهما

فى السجن ، و لم يلبث مروان أن ولى الخلافة وتعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد فثار أهل حمص بزعامة ثابت بن نعيم وانضم إليه أهل تدمر برياسة الأصبغ بن ذوءابة الكلبى ، غير أن مروان استطاع أن يهزمهم كما هزم يزيد بن خالد القسرى الذى انضمت إليه اليمنية بدمشق وقضى عليهم . و لم يكد يستقر الأمر لمروان فى بلاد الشام حتى خرج بها سليمان بن هشام بن عبد الله ودعا أهلها إلى خلعه فانضمت إليه اليمنية فهزمه مروان وفر سليمان إلى العراق وانضم إلى الخوارج لمناوأة مروان . هكذا كانت البلاد مرتعًا للفتن والاضطرابات مما أدى إلى انشغال مروان بإخمادها فلم يلتفت إلى خراسان وما كان يجرى بها من أمر الدعوة العباسية التى أشتد أمره وعظم خطرها ، و لم يلبث أن باغتته الرايات السوداء (شعار العباسيين) من خرسان ، وقضت على جيشه ففر إلى مصر حيث أدركه عبد الله بن على العباسى ثم أخوه صالح بن على الذى قتله سنة ١٣٢هـ .

٣ – انغماس بعض الخلفاء فى الترف : خرج الأمويون عن سياسة الزهد والتقشف التى عاشها الخلفاء الراشدين وانصرفوا إلى حياة الترف والبذخ اللذين أخذوهما عن البلاط البيزنطى مما كان له أكبر الأثر فى سقوط دولتهم فقد أشتهر يزيد بن معاوية بحبه للهو وكان صاحب طرب وجوارح وكلاب وفهود ومنادمة على الشراب ، أما يزيد بن عبد الملك فلم يكن بأحسن حالاً من يزيد بن معاوية فقد كان صاحب لهو وقصف شغف بحبابة واشتهر بذكرها كذلك اشتهر ابنه الوليد باللهو والمجون وكان شاعرًا مجيدًا له أشعار مثيرة فى العتاب والغزل .

وليس من شك أن خلفاء بنى أمية فى لهوهم وترفهم وانغماسهم فى مظاهر الترف أنما أرادوا بذلك مسايرة روح العصر متأثرين فى ذلك بما يجرى فى البلاط البيزنطى المسيحى من شرب خمر ولهو تحرمه الديانة المسيحية ذاتها ، و لم يكن

الخطر فى انغماس حكام الأمويين فى ذلك اللهو وأنما الخطر فى تـأثر عامـة الرعيـة التى كانت دون شك تميل إلى مسايرة الحكام ومجاراتها أن لم يكن محاكاتهـا الأمـر الذى أدى إلى سريان الفساد والتحلل إلى المجتمع الإسلامى فى ذلك العصر .

٤ – تعصب الأمويين للعرب : مـن الأمـور الجديـرة بالملاحظـة أن الدولـة الأموية كانت عربية لحمًا ودمـا ، ومـن ثـم تعصـب الأمويـون للعـرب والعربيـة ، وأخذوا ينظرون إلى الموالى نظرة احتقار وازدراء الأمر الذى أثار هؤلاء وايقظ فيهم روح الشعوبية ، وكان منشأ تلك الحركة اعتقـاد العـرب أنهـم أفضـل الأمـم وأن لغتهم أرقى اللغات . وترجع حركة الشعوبية إلى الوقـت الـذى دخـل فيـه العـرب بلاد الفرس وغيرها من بلاد الأعاجم ، وأصبحوا سادة الفرس ، ولما جاء الأمويون انحازوا إلى العرب ولم يساووا بينهم وبين الموالى فأجمع هؤلاء أمرهـم وثـاروا علـى الأمويين فى عهد عبد الملك بن مروان فأرسل إليهـم الحجـاج بـن يوسـف الثقفـى ليقضى على حركاتهم ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر عماله بوضع الجزيـة عمن أسلم سواء كان عربيًا أو غير عربى ، ثم تبدلت الحال بعد ذلك ، بعد وفاتـه فعاد الأمويون يفرقون فى المعاملة بين العرب والموالى ، فلا عجب إذا أثـارت هـذه المعاملة ضيق الموالى وسخطهم على الأمويين ، وأخذوا يتلمسـون الفـرص للإيقـاع بهم فانضموا إلى الحركات المناوئة للدولة الأموية فلما نشط دعاة العباسيين انضموا إلى الدعوة العباسية لينالوا حقوقهم المهضومة . وقد فطـن العباسـيون إلى مـا كـان يضمره الموالى لبنى أمية ودولتهم من كراهية فاستعانوا بهـم فـى نشـر الدعـوة لهـم ونجحوا فى ذلك .

« مظاهر الحضارة العربية فى الدولة الأموية »

إدارة الدولة وشئون الحكم :

من الأمور الجديرة بالملاحظة أنه فى عهد الدولة الأموية تبلورت فكرة الحكم وأخذت شكلها السياسى فى تنظيم يجمع رئاسة الدولة فى شخصية الخليفة الذى جمع فى يديه السلطة التشريعية والتنفيذية والى جواره كان الوزير يعاونه ويشير عليه وأداة تنفيذ، فضلاً عن الكتاب الذين عملوا فى مختلف المصالح الحكومية بالإضافة إلى الحجاب الذين كانوا ينظمون مقابلات الخليفة بينه وبين الرعية .

الخلافة :

تحولت الخلافة فى عهد الدولة الأموية من نظام الشورى الذى كان أساسه انتخاب الخلفاء فى بيعة خاصة يقوم بها عليه القوم وكبار الشخصيات ثم بيعة عامة يبايع فيها الناس تحولت إلى ملك استبدادى وراثى مع تمسك بفكرة البيعة التقليدية ، وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين ومن ثم زالت الصفة الزمنية فى الخلافة و لم يكتفى خلفاء بنى أمية بالقضاء على نظام الشورى فى خلافة المسلمين بل عمدوا إلى أخذ البيعة لأبنائهم من بعدهم فى حياتهم وبذلك حرموا المسلمين من حقهم الطبيعى فى الشورى التى الفها العرب وجاء بها القرآن الكريم وآيدتها الأحاديث النبوية . وقد زعموا أنهم ما فعلواذلك إلا حفاظًا على وحدة المسلمين وعدم تفرقهم بعد وفاة الخليفة شيعًا وأحزابًا كل يناصر من يريده إلا أن هذا الرأى كان له ما يدحضه وهو أن الرعية ما لم ترضى خليفة عن بيعة قائمة على أساس الشورى فإن هؤلاء المحكومين يظلون ساخطين ناقمين يتحينون الفرص للخروج ، والثورة على الخلافة .

الوزارة :

لم تكن معروفة بأسمها فى عهد الرسول ولا الخلفاء الراشدين من بعـده وأن كان هناك أعوان قاموا بعمل الوزراء وهم رجال المشورة أو أصحاب الشـورى . فلما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية وتحولت إلى ملك وراثـى احتـاج الخلفـاء إلى مـن يستشيرونه ويستعينون به فأختاروا بعض ذوى الرأى وقربوهم إليهم ، فكان هؤلاء يقومون بعمل الوزارة وأن كانوا لا يلقبون بلقب الوزير ومع ذلك فأننـا نجـد زيـاد ابن أبيه يلقب بالوزير فى عهد معاوية وكان دوره كبير فى استتباب أمـور الخلافـة فى بلاد العراق وخاصة الكوفة والبصرة ، وكذلك لقب ابن زنباغ وزيرًا فى عهـد عبد الملك بن مروان .

الكتابة :

كثر الكتاب وتعددوا فى عهد بنى أمية نظرًا لتعـدد مصـالح الدولـة وأصبـح الكتاب خمسة كـاتب الرسـائل وكـاتب الخـراج وكـاتب الجنـد وكـاتب الشـرطة وكاتب القاضى . وكان أهم هؤلاء فى الرتبة كاتب الرسـائل ، وكـان الخلفـاء لا يولون هذا المنصب إلا لأقاربهم وخاصتهم([1]) .

الحجابة :

وكانت من الأمور المميزة لخلفـاء بنـى أميـة الذيـن أخـذوا درسًـا مـن قتـل الخلفاء الراشدين لأنه لم يكن هناك فى رأيهم حاجب يحـول بينهـم وبـين الرعيـة ، وكان معاوية أول من اتخذ الحجاب حتى يأمن شر الناس وخاصة الخوارج ولتنظيم

---

(١) على حسنى الخربوطلى : الحضارة العربية الإسـلامية ص٣٩ - ٤٠ ، مكتبـة الخـانجى ط٢ سنة ١٩٩٤م .

دخول الناس إليه كى يتفرغوا للنظر فى أمور الدولة . وكان منصب الحاجب ساميًا فى البلاط الأموى ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم إلا أنه كان هناك ثلاثة مسموح لهم بالدخول فى أى وقت فقد قال عبد الملك بن مروان لما ولى حاجبه : « لقد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة المؤذن لصلاة وصاحب البريد وصاحب الطعام »(١) .

النظام الإدارى :

الدواوين :

لم يلبث نظام الديوان أن تعقد فى عصر معاوية بن أبى سفيان فظهر عدد من الدواوين كل منها يختص فى شأن من شئون الدولة وانحصرت الأعمال الإدارية فى عهد بنى أمية فى أربعة دواوين أو إدارات رئيسية هى :

١ - ديوان الخراج والجبايات :

ظل ديوان الخراج والجبايات فى عصر الدولة الأموية على حاله حتى أيام عبد الملك بن مروان عندما استقرت دعائم الدولة العربية ورسخت قواعدها فأمر بتعريب الدواين من الفارسية والقبطية واليونانية والرومية إلى العربية وكان العرب قد أبقوا الديوان على ما كان عليه قبل الفتح العربى للولايات وذلك لقلة معرفة العرب بأمور الإدارة ، غير أن ذلك لم يدم طويلاً فلم يلبث العرب أن تمكنوا من استيعاب هذه الدواوين وتمكنوا منها ومن ثم نتج عن حركة التعريب إدارة العرب لهذه الدواوين فأصبحت عربية قلبًا وقالبًا .

---

(١) نفس المرجع ص ٤٠ .

٢ – ديوان الرسائل :

وهو من الدواوين التى استحدثت زمن معاوية ويقوم متولى هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية أو الموجهة من الخليفة إلى عماله وكان القائم على هذا الديوان يختار من أهل النسب وعظماء القبائل ، و لم يلبث أن تعددت اختصاصات هذا الديوان وكثر عدد كتابه وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يشرف عليها خازن يحفظ أصول المراسلات ونسخها منظمة فى سجلات أو ملفات خاصة تسمى أضابير مفهرسة ببطاقات فيها محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها .

ديوان الخاتم :

وكان من أكبر دواوين الدولة الأموية وهو أيضًا من الدواوين المستحدثة زمن معاوية الذى أراد بذلك إلا تخرج التوقيعات بدون ختم حتى لا يتم التزوير فى التوقيعات وقد حدث أن أمر معاوية لعمر بن الزبير عند زياد بن أبيه بمائة ألف ، ففتح الكتاب وصير المائة مائتين مما دعا معاوية إلى اتخاذ ديوان الختم وحزم الكتب و لم تكن تحزم من قبل . وأصبح الديوان يضم عددًا من الكتاب القائمين على انفاذ كتب الخليفة والختم عليها أما بالعلامة أو بالحزم ، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس لصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب ، وقد يجعل على مكان الألصاق علامة يؤمن بها من فتحه ، ولا تخرج عن ختم المكان الملصق بخاتم منقوش .

ديوان البريد :

نظام قديم يرجع إلى ما قبل الإسلام ، ولكن أول من وضع البريد فى الإسلام معاوية بن ابى سفيان لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع الأمصار الإسلامية التابعية له .

وكان يشرف على نقل البريد عدد من العمال يعيشـون فـى محطـات الـبريد الرئيسية ويزودون بوسائل من البغال والأبل والفرسان اللازمة لعمله ، فـإذا وصـل صاحب الخبر المسرع إلى أحد هذه المحطات وقد تعب فرسه ركب فرسـا مسـتريحًا وكذلك يفعل فى المحطة التالية حتى يصل بأسرع وقت . ومن الجدير بالملاحظة أن نذكر أن وظيفة صاحب البريد فـى العهـد الأمـوى وخاصـة فـى الأمصـار كـانت مقتصرة على نقل الإخبار إلى خلفاء بنى أميـة ، وليـس مـن حقـه التجسـس علـى الوالى وصاحب الخراج[١] .

القضاء :

ظل القضاء على بسـاطته التـى كـان عليهـا أيـام الخلفـاء الراشـدين فكـان القاضى يعتمد على الاجتهاد فـى الأحكـام بـالقرآن والسـنة والإجمـاع . وينقسـم القضاء فى العصر الأموى إلى نوعين قضاء شـرعى وقضـاء مدنـى وكـان القـاضى الشرعى يستمد أحكامه من مصادر الشريعة الإسلامية . القرآن والسـنة والاجمـاع أو القياس أما القضاء المدنى فيتولاه المحتسب وكثيرًا ما جمع القضاة الشـرعيون بـين السلطتين الشرعية والمدنية . أما المشاكل التى يسـتعصى حلهـا فكـان يفصـل فيهـا قاضى المظالم وتفوق سلطته القاضى والمحتسب ، ولقـد أفـرد الأمويـون للنظـر فـى المظالم ديوانا خاصًا يرجع الفضل فى أنشائه إلى عبد الملك بن مراون ، وكان عبـد الملك إذا وقف منها علـى مشـكل أو احتـاج إلى حكـم منفـذ رده إلى قاضيـه أبـى أدريس الأزدى . وكان خلفاء بنـى أميـة يباشـرون النظـر فـى المظـالم وردهـا ورد مظالم بنى أمية على أهلها ولم تختلف شروط تولية القـاضى عمـا كـانت عليـه فـى

(١) على حسن الخربوطلى : نفس المرجع ص ٤٠ .

عهد الخلفاء الراشدين . وكانت الدولة تراعى أن توفر للقاضى مستوى معيشيًا يجعله فى بحبوحة من العيش أعانها على ذلك زيادة مواردها وقد قيل أن عبد الرحمن بن جميرة قاضى مصر (٦٩ - ٨٣هـ) كان راتبه ألف دينار فى العام : مائتين عن القضاء ومائتين عن القصص عن بيت المال ، وكان عطاؤه مائتى دينار، وجائزته مائتين وهو مرتب يعتبر خياليًا فى الوقت الحالى إذا قيس بمقاييس عصرنا ، على أن القضاء فى عهد عمر بن عبد العزيز لم يتناولوا راتبًا اصلاً . لأنها خدمة دينية ، وبلغ راتب القاضى فى عهد مروان بن محمد عشرة دنانير فى الشهر .

الطراز :

أقبل العرب بعد الفتوحات على التأنق فى اللباس وتخلوا عن ثيابهم الخشنة ، فازدهرت صناعة النسيج فى أنحاء الدولة وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز . والطراز كلمة فارسية معناها التطريز وعمل المدبج أو الشريط الكتابى الذى ينسج فى لحمة الثوب وسداه ثم تطورت كلمة الطراز فأصبحت تعنى المصنع الحكومى الذى يصنع الثياب وقد اقتبس خلفاء بنى أمية هذا النظام عن الروم والفرس إلا أنهم أدخلوا تغييرا على صناعته فوضعوا بدلاً م الصور كتابة عربية تشير إلى أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفأل . وكانت المصانع التى تصنع ملابس الخليفة وخاصته تسمى طراز الخاصة تمييزا لها عن طراز العامة التى تصنع ثياب الرعية وكان المشرف على دار الطراز يسمى « صاحب الطراز » .

وشاع فى عصر سليمان بن عبد الملك نوع من التأنق والترف فى الزى بتوجيه من الخليفة فقد فرض على رجاله وأهل بيته ارتداء الوشى (ويعرف بالمقصب وتدخل فى لحمته وسداه خيوط الذهب) وذكر المسعودى أنه كان لا

يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا فى الوشى وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره من الخدم حتى الطباخ وكان أول من لبسه فى الإسلام من العرب ، عبد الله ابن عامر بن كريز وجبير بن مطعم (ت ٥٤هـ) وكان عمر بن عبد العزيز يصلى فى طيلسان وليس عليه إزار .

السكة (العملة) :

لما تولى معاوية الخلافة ضرب دنانيرَ إسلامية عليها صورته متقلدًا سيفه على غرار الدنانير البيزنطية . و لم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا فى عصر عبد الملك بن مروان فقد شهد عصره تعريب السكة الإسلامية وتوحيدها بعد ان تعددت العملات وخاصة تلك التى أصدرها عبد الله بن الزبير فى الحجاز وأخوه مصعب فى العراق ، كما أن السكة بما تحمله من نقوش ورموز دينية تعبر عن سلطة الدولة وقوة الخليفة الحاكم ، وكان تداول عملات بيزنطية أو فارسية فى أنحاء الدولة العربية يتعارض تمامًا مع سياسة الدولة العربية قوميًا وعربيًا .

ومن الجدير بالذكر أن الإصلاح النقدى للسكة الذى قام به عبد الملك بن مروان تم عبر مرحلتين ففى المرحلة الأولى ضربت الدنانير على غرار العملة البيزنطية منبترا على الصليب من وجهالعمله وأحيط هذا الصليب بعبارات التوحيد المنقوشه بالخط الكوفى . أما فى الوجه الآخر فقد ابقى على صورة هرقل وولديه وفى المرحلة الثانية استبعد عبد الملك التأثيرات البيزنطية نهائيًا بأن نقش صورته مكان صورة هرقل وولديه ثم ابقى العمود القائم على المدرج الذى يحمل الصليب فى العملات القديمة ، وأصبح وجه الدينار يحمل صورة عبد الملك وأصبح ظهره منقوشًا بكتابه تدور على حافة الدينار « بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست

وسبعين » وأصبح الصليب بجرد عمود قائم على أربع مدرجات ، وكـان مـن أثـر ذلك أن احتج جماعة من الصحابة الذين أنكاروا على عبد الملك تشبهه بالأباطرة ، كما أنكروا إظهار الصور التى ينهى عنها الشرع . وقد أثـار صـدور هـذا الدينـار وعليه صورة الخليفة رد فعل عنيف عند البيزنطيين وهـددوا بلعـن المسـلمين علـى عملاتهم . فضلاً عن أنهم اعتبروا هذا الإصلاح النقدى الإسلامى ثورة على نظـام النقد البيزنطى العالمى .

ومع ذلك فقد كان هذا الدينار تمهيدًا لصدور الدينار الإسلامى الخالص فـى سنة ٧٧هـ وكان يتوسط الوجه الأول عبارة « لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له » ويدور على الحافة عبارة محمد رسول ا لله أرسله بالهدى ودين الحـق ليظهـره علـى الدين كله « أما الوجه الآخر فقد كان يتوسطه « ا لله أحد ا لله الصمد لم يلـد و لم يولد » ويدور على الحافة « بسم ا لله ضرب هذا الدينار عام سبع وسبعين » .

شيوع الترف فى المجتمع المدنى : كان مـن أثـر الفتوحـات الإسـلامية ومـا ترتب عليها من زيادة فى موارد الدولة المالية أن تأثرت الحياة الاجتماعية فى عصـر الدولة الأموية وخرجت عن حياة الزهد والتقشف التى عاشها العرب خلال عصـر الخلفاء الراشدين يحكمهم فى ذلك الوازع الدينى ووجـود المثـل الحـى المتمثـل فـى حياة الخليفة نفسه والصحابة والتى تتميز بالبساطة والزهد غير أن الـترف لم يلبـث ان تسرب إلى المجتمع العربـى فـى العصـر الأمـوى فتغـير نـوع طعـامهم ومشـربهم وملبسـهم وسـكنوا القصـور واسـتخدموا الفـرش والآنيـة وتبـاهوا بإقامـة الولائـم والمآدب والحفلات .

أولع العرب فى العصر الأموى بفن الموسيقى والغناء وخاصة بعـد أن أصبـح لديهم متسعًا من الوقت فوجهوا هممهم لشغله بسماع الغناء من الجـوارى والقيـان

ومن الجدير بالذكر أن أسرى الحروب كان لهم دورهم فى ارتقاء فن الموسيقى والغناء بما حمله من الات موسيقية فضلاً عن فنهم فى استخدام هذه الآلات وأجادة الغناء فغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر ، وقد سمعوا شعر العرب فلحنوه وأجادوا فيه وعنهم أخذ معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره . كان الخلفاء الأوائل يستمعون فى أوقات فراغهم لقصائد الشعراء فى مدحهم ووصف حروبهم و لم يلبث أن حل الغناء محل الشعر وكان هناك حجاب بين الخليفة وندمائه حتى لا يطلع الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب أو أخذته النشوه بالطرب وهذا وإن كان بعض خلفاء بنى أمية يعهدون للندماء والمغنيين وقد اشتهرت فى أيام يزيد بن عبد الملك المغنية سلامة التى أغرم بها يزيد ، كما أغرم بجارية تسمى « حبابة » ويرجع إلى الوليد بن يزيد الفضل فى ازدهار فن الغناء والموسيقى حتى أصبح أسمه مقترن بهذا الفن ، وذكر عنه أنه قد ورث الطرب فى الشعر عن أبيه ، وهو أو ل من حمل المغنيين من البلدان إليه وجالس الملهين وفى أيامه كان ابن سريج المغنى ومعبد والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس الذى كان أهل المدينة يؤثرون غناؤه على كل غناء وقد أبدع الغريض فى الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناءه عن الجن .

وكان للقيان أثر ملحوظ فى تقدم الغناء فى العصر الأموى . على أنه يلاحظ أن أكثر المغنيين والقيان فى هذا العصر كانوا من غير العرب ، لأن العرب لم يحترفوا الغناء و لم يشتهروا بالموسيقى وأنما يرعوا فى الشعر وخاصة الفن الغزلى ومن مجالات اللهو والترف سباق الخيل الذى انشأ هشام بن عبد الملك أول حلبة له فاجتمع فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ، وكان له فرس مشهور يقال له « الزائد » كذلك أغرم الوليد بن يزيد بالخيل وإقامة الحلبة له وكان له فرس يسمى « السندى » وقد أجرى الوليد الخيل فى الرصافة وأقام لها المسابقات.

« الحياة الفكرية »

اقتصرت عناية المسلمين فى صدر الإسلام على العلوم الدينية وهى القرآن وتفسيره والحديث وروايته واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية ، وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ويطلق على الأولى العلوم النقلية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ويطلق عليها أحيانًا علوم العجم أو العلوم القديمة وعلوم الأوائل . وتشمل العلوم النقلية : علم القراءات وعلم التفسير وعلم الحديث والفقه والنحو واللغة والأدب ، وتشمل العلوم العقلية الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا .

١ – العلوم الدينية : تعد العلوم الدينية أول ما عرفه العرب من العلوم ، ولما تفرق الصحابة فى الأمصار تبعًا لحركة الفتوح تأسست المدارس الدينية فى الأمصار الإسلامية وكان أساسها القرآن والحديث والفقه فكانت بداية التأليف العلمى عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر . وكانت مراكز هذه الحركة المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق .

وكان علم القراءات من أهم العلوم الدينية الذى يعتبر أساس علوم التفسير وكان القراء فى بلاد الحجاز وسائر الأمصار الإسلامية يقرأون القرآن دون تصحيف واستمر ذلك إلى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وقد ظهرت للقراءات سبع طرق كل طريقة تمثلها مدرسة معترف بها ومن أئمة القراءات فى المدينة نافع بن عبد الرحمن بن ابى نعيم المدنى وفى مكة عبد الله بن كثير (ت ١٢٠هـ) وفى الكوفه عاصم بن أبى النجود (ت ١٢٨ هـ) وفى دمشق عبد الله بن عامر اليحصبى (ت ١١٨هـ) .

الشعر الأموى : كان من أثر ازدياد الثروة واستغراق المجتمع الأموى فى الترف وولوع خلفاء بنى أمية بالشعر وتذوقهم له أن نهض الشعر العربى فى عصرهم ، وأخذ الشعر اتجاهات جديدة لم تكن معروفة عند العرب فى الجاهلية فظهر شعر الغزل المرتبط بالغناء ومن شعراء هذا اللون عمر بن أبى ربيعة فى الحجاز والذى يمثل الغزل المادى وجميل عذره الذى يمثل الغزل العفيف ، كما شاع شعر الغزل بين أشراف المدينة وسادتها حتى أنهم كانوا يطلبونه لمغنيهم ومغنياتهم، وكان يغنيه طويس وسائب خاثرومعبد وجميلة وسلامة وغيرهم من المغنيين والمغنيات .

ونتيجة لقيام الحزبية وظهور الشعر السياسى فى العصر الأموى فكان من بين الشعراء الزبير بن عبد الله بن قيس الرقيات ومن شعراء الشيعة كثير بن عبد الرحمن ومن شعراء الخوارج قطرى بن الفجاءة وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم ويتميز شعر هؤلاء باحتقار الدنيا والتغنى بالشجاعة والجهاد .

كذلك وجدنا من الشعراء من يمثلون الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية ومن شعراء القيسية الكميت ومن شعراء القحطانية عبل الخزاعى كما كان هناك شعراء يمثلون السياسة الأموية منهم الفرزدق شاعر عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان ويزيد وجرير شاعر الحجاج والأخطل شاعر معاوية وخلفائه .

العلوم الطبيعية :

الكيمياء والطب : كانت صناعة الكيمياء والطب فرعان لأصل واحد وهو العلم الطبعى وقد اشتغل المسلمون فى عهد الأمويين بهذ العلوم وأول من اهتم بعلم الكيمياء وبأخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية وقد أخذ هذا العلم عل يد راهب اسكندرى يقال له مريانوس .

وفى مجال الطب استعان الأمويون ببعض أطباء بيمارستان جند يسابور فى فارس ومنهم الطبيب النصرانى أثال الذى أخذه معاوية بن أبى سفيان طبيبًا وكان خبيرًا بتراكيب الأدوية وكذلك « حكم » الدمشقى الطبيب وتيادوق طبيب الحجاج وماسرجويه اليهودى الفارسى طبيب مروان بن الحكم وابن أبجر طبيب عمر بن عبد العزيز .

وفى مجال علم النجوم أولع عبد الملك بن مروان بهذا العلم حتى أنه كان يصحب معه بعض المنجمين فى حروبه ، وعلى العكس من ذلك كان مروان بن محمد لا يميل إل ذلك العلم لا إلى أصحابه حتى أنه رفض نصيحة أخيه عبد الملك بعدم الخروج لمقابلة إبراهيم بن الأشتر النخعى تبعًا لما أشار عليه منجم عبد الملك ، وانتصر رغم تأكيدات المنجم بهزيمته .

٢ – علوم اللغة : كانت لغة العرب الفصحى هى ذخيرتهم التى حملوها من الجزيرة العربية إلى الأمصار غير أن أختلاط العرب بالرومان والسريان فى بلاد الشام وبالقبط فى مصر اضطرهم إلى وضع قواعد للغة العربية لتحميها من اللحن والخطأ فظهرت مدرسة النحو فى البصرة ويرأسها أبو الأسود الدولى وقد أخذ عنه جماعة من دارسى النحو منهم يحى بن يعمر ، وعنبسه بن معدان وميمون الأقرن وعيسى بن عمر الثقفى الذى أخذ عنه الخليل بن أحمد ، وكان للألفاظ والمصطلحات التى استحدثت فى اللغة العربية و لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، مما ادى إلى البحث فى مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها فظهرت المعاجم وأول من وفق فى جمع أول معجم فى اللغة العربية الخليل بن أحمد الأزدى (ت ١٧٠هـ) وهو أول من استخراج العروض وحصن به اشعار العرب وله كتاب العين وكتاب العروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل وكتاب فائت العين وكتاب الإيقاع .

علم التاريخ : كانت سيرة الرسـول ومغازيـه وأخبـار هجـرة المسـلمين إلى الحبشة ويثرب ، أساس الدراسات التاريخية وكانت مكـة المركـز الرئيسـى لنشـاط هذه الحركة التاريخية واعتمد المؤرخون الأوائل على الروايات الشفهية شـأنهم فـى ذلك شأن رواة الحديـث ، واقـدم الكتـب التـى تمثـل ذلـك النـوع كتـب المغـازى والمسيرة ، وانقسم مؤرخو السيرة فى مدرسة المدينة ومكة إلى ثلاث طبقـات فـبرز فى الطبقة الأولى منها : أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) وعروة بن الزبـير (ت ٩٢هـ) الذى مكنه نسبة من معرفة الكثير مـن الأحـاديث والأخبـار ، وعـن عروة أخذ ابنه هشام وابن شهاب الزهرى ومن رجال الطبقـة الثانيـة عبـد الله بـن ابى بكر بن حزم الأنصارى (ت ١٣٥ هـ) وعاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى (ت ١٢٠ هـ) الذى عهد إليه عمرو بن عبد العزيز بـالجلوس فـى جـامع دمشـق ليحدث الناس عن مغازى الرسول ومناقب الصحابـة وعليـه اعتمـد كـل مـن ابـن أسحق والواقدى المؤرخين وابن شهاب الزهرى (ت ١٢٤ هـ) .

ومن العلوم الدينية علم تفسير القـرآن وقـد اقـترن التفسـير فـى عصـر النبـى ﷺبالوحى فقد كان جبريل ينزل بالإيات على النبى ومعها تفسيرها ، وكان النبـى ﷺ ينهى عن التفسير بالهوى وكان الرسول أول من شرح القـرآن ثـم تـولى بعـده هذه المهمة الصحابة باعتبارهم الواقفين على أسرار القرآن ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد اله بن عباس وأول من دون التفسير فى الصحـف مجـاهد بـن جـبر (توفى سنة ١٠٤هـ) وقد اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهمـا . ومـن الموالى الذين اشتهروا بالتفسير فى هذا العهد عكرمة مولى بن عباس وطـاووس بـن كيسان وعطاء بن أبى رباح وأبو العتاهية .

ومن العلوم الدينية الحديث : و لم تكن السنة فى هذا العهد مرادفة للحديث وأنما كانت أعم فى دلولها عند الفقهاء بحيث شملت أقوال الرسول وأفعاله والتشريعات المستنبطة من ك ذلك . ولذا كان الفقهاء يفرقون بين علماء السنة وعلماء الحديث حتى أن عبد الرحمن بن مهدى قال : « سفيان الثورى أمام فى الحديث وليس بأمام فى السنة والأوزاعى أمام فى السنة وليس بأمام فى الحديث ومالك بن أنس أمام فيهما جميعًا » .

لم يدون الحديث إلا فى القرن الثانى الهجرى فى خلافة عمر بن عبد العزيز حينما دخلت البدع والأهواء فى رواية الحديث فأمر بتدوين الحديث فكتب فى دفاتر وأرسلت نسخ منها إلى أنحاء الدولة الإسلامية وبعد سفيان بن سعد الثورى (ت ١٦١ هـ) من أشهر الحدثين فى العصر الأموى وله من الكتب الجامع الكبير وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة (ت ١٥٩هـ) وله من الكتب السنن ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريح (ت ١٥٠ هـ) وصنف كتاب السنن ، ومغيرة بن مقسم الضبعى (ت ١٣٦هـ) .

ومن رجال الطبقة الثالثة محمد بن اسحق (ت ١٥٢هـ) أشهر تلاميذ الزهرى وأصله فارس واليه تنسب أقدم كتب السيرة التى وصلت إلينا . ومحمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ) والذى فاق ابن أسحق فى الدقة والأسلوب مع العناية فى تحقيق تواريخ الأحداث .

وشاركت مدرسة الكوفة والبصرة فى حركة الكتابة التاريخية ومن أشهر كتابالتاريخ والأخبارين من أصحاب هذه المدرسة أبو مخنف لوط بنى يحيى الأزوى (ت ١٥٧ هـ) وسيف بن عمر الكوفى الأسدى (ت ١٨٠ هـ) وعوانة بن الحكم الكوفى (ت ١٤٧ هـ) .

ومن المؤرخين الذين اشتغلوا بكتابة التاريخ العربى القديم فى عصر الدولة الأموية عبيد بنى بن شرية الجرهمى الذى عاش إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ) .

علم الكلام : ظهرت فى العصر الأموى حركات فلسفية دينية كالجبرية والقدرية والمعتزلة . فالجبرية يقولون بأن أرادة الله مطلقة وقدرته تضع حدًا لإرادة الإنسان ، والإنسان على ذلك مجبراً اختيار له ولا قدرة وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان وسمى أتباعه بالجهمية وقد نفى الجبرية صفات الله لأن صفات الله بشرية والبشر خل . أما القدرية فجاءت حركتهم كرد فعل لحركة الجبرية وهو أن الإنسان يملك القدرة الإرادة عن تصرفاته وكانت القدرية تعارض بنى أمية أما المعتزلة فقد ظهرت فى بداية القرن الثانى الهجرى وأخذت اسمها من اعتزال واصل بن عطاء حلقة استاذه الحسن البصرة لاختلافه معه فى الرأى وهم يرون بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره فى منزلة بين المنزلتين وقالوا بقدرة الإنسان على خلق أفعاله ونفوا عن الله أى صفات بشرية أو أزلية مستندين فى ذلك ما ورد فى القرآن ليس كمثله شئ وقوله تعالى : سبحان رب العزة عما يصفون .

فهرس الموضوعات